ولادة الأشباح

ماري داريوسيك

ترجمة: كيتي سالم











أهم جروبات على تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية



أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

ولادة الأشباح



هذه هي الترجمة الكاملة لرواية

ولادة الأشباح Naissance des fantomes

لماري داريوسيك Marie Darrieussecq

P. L. O, 1987

ترجمة: د. كيتي سالم



٥ ش محمد صدقي، هدى شعراوي
الرقم البريدي، ١١١١١ باب اللوق ، القاهرة
ت : ٣٩٠٢٩١٣ فاكس: ٣٩٣١٥٤٨

لوحة الغلاف: أ. ر. بينك

صدر هذا الكتاب بالتعاون مع



المركز الفرنسي

للثقافة والتعاون العلمي

قسم الترجمة والنشر

ماري داريوسيك

ولادة الأشباح

ترجمة : د. كيتي سالم






أهم جروبات على تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

كـــانت تجيـــل بصرهـــا بحثـــا" عـــن وســـيلة للهرب، وتتساءل إن كـــان بإمكانـــها الابتعـــاد دون أن يشعر أحد بذلك ، حيـــن لمحـــت، فـــي الأجواء، رؤية غريبة ؛ حيرتها هـــذه الرؤيـــة لأول وهلة وأقلقتـــها، ولكـــن بعـــد أن نظـــرت إليها بإمعان، دقيقة أو دقيقتيـــن، أدركـــت أنـــها ابتسامة، فقالت في ذاتها : " إنه قـــط شيشـــير: أصبح الآن معي من أتحدث إليـــه " .

لويس كارول

(١)

اختفى زوجي. عاد من عمله، أسـند محفظتـه علـى الحـائط، سألني إن كنت قد اشتريت خـبزا ". كـانت السـاعة تقـترب مـن السابعة والنصـف.

هل اختفى زوجـي لأنـه، ذاك المسـاء، بعـد سـنوات مـن إهمالي له، كان تعبا "وقد أرهقـه عمـل يومـه، فمـل فجـأة مـن التزامه اليوم تلو اليوم النزول ثانية طوابـق منزلنـا الخمسـة بحثـا "عن الخبز؟ حاولت أن أساعد المحققين: هل كـان ذاك اليـوم شـأن الأيام الأخرى ؟ لقد فحصنا بإمعان ملفـات الحاسـب جميعـا" تلـك التي راجعها زوجي منذ الصباح. لم يبع شيئاً يُذكر كمـا لـم يسـتلم شيئا" مميزاً، لقد أرى ثلاث شـقق للزبـائن، أكـل ظـهراً شـطيرة اشتراها في زاوية الشارع كما يفعل كل يـوم. لـم يلاحـظ زائـرو الشقق (زوجان شابان، وزوجـان فـي متوسـط العمـر، ورجـل مطلّق أشيب الشعر، قابلهم المحققون) أية بـادرة تلفـت النظـر مـا

عدا سخاّن ماء تلف وتفاصيل أخرى عــن الشــقق، لقــد أتــوا لـــهذا الغرض، حتى إنهم لم يعودوا يتذكرون ملامـــح زوجــي.

لم يكن باستطاعتي، بالطبع، أن أقــدم كشــفاً مفصــلاً يشــرح كيف يمضي زوجي وقته ساعة ساعة، لــذا أشــار علــيَّ المحققــون أن أبحث في مراسلاته، وأفتــش فــي دروج مكتبــه وفــي جيــوب ملابسه، وأن أدقق آخر كشف لقائمـــة هاتفــه المــهني، لأنــه ليــس بإمكانهم أن يقوموا بهذا العمل ذلك أنه يختفي كــل يــوم فــي البلــد مائتا شخصٍ، ونادرا"ما يجدونـــهم فــي الجــزر برفقــة حســناوات شــقراوات(وكــأنني لســت، أنــا، حســناء شــقراء)، وآخـــرون يجتازون الحدود ومن الحكمة والحالة هذه، التخلــي عــن أي أمــل، وأخيراً بعضهم يلقون بأنفسهم فــي البحــر، فتجرفــهم الميــاه علــى الشواطئ وقــد انتفخــت جثثــهم وأكلــت براغيــث البحــر أعينــهم وألسنتهم، واحتشــد الحلــزون والديــدان فــي شــرجهم، لــذا مــن الأفضل تجنب هذا النوع من اللقــاءات. وقــد ســألني المحققــون إن كان زوجي سوداوي الطبع، كئيــب المــزاج.

لم اتصل بــالمحققين فــور اختفائــه. اســتغرق الأمــر منــي بعض الوقت، قبل أن أدرك أن زوجي قد اختفــى. غالبــاً مــا كنــت أستفيد من غيابه لشراء الخبز كي أخابر أمي. كنــت أغلــق ســماعة الهاتف حالما أسمع وقع خطــاه فــي الطــابق الرابــع. ذاك اليــوم، مكثنا منهمكتين، أنا وأمي، أكثر مــن ربــع ســاعة علــى الــهاتف، هي في ثرثرتها، وأنــا أقاطعــها باســتمرار لأذكرهــا أن علــيَّ أن أتركها. انتابني إحســاس، غــامض بــادئ الأمــر، أن حديثــها قــد استغرق وقتا" أطول من المعتــاد. نظــرت إلــى الشــارع، لأرى إن

كان زوجي لايجتازه ؛ أصخت السمع، لأصغي إلى وقع أقدامه على السلم ؛ فكان أن أقفلت أمي الخط، وهي تتهمني، كما تفعل دائما"، بأني لا أعيرها أي اهتمام، في حين كنت قد انحنيت فقط من النافذة وقد تملكتني للتوّ رغبة وهي أن أستسلم لهذه المهمة: أن أترقب بهدوء ظهور زوجي .

كانت الشمس قد شارفت على الغروب ورحت أتنفس وسط الهواء العليل. كان يندر، في ساعة كهذه من النهار، أن أمكث هكذا بلا عمل أنظر من النافذة ؛ كنت أدرك، عامة، حوالي السابعة والربع، أن العشاء غير معدٍ، فأنزل مهرولة لأشتري ما نأكل (وقد نسيت الخبز: كما أن مخزن البقالة لا يحوي خبزا"، ويقع أقرب مخبز في الطرف الآخر من الشارع العريض، أي أن اجتياز الشارع يستغرق وقتا" طويلا") . كانت أسطح المنازل قد احمرت، وتوحدت فوضى الضاحية هذه، فكنا نجهل أي لون يهيمن، ألون صفائح الأردواز أم الآجر، أم القرميد أم الحجر الكلسي، وبدت هذه الفوضى في الغروب أقرب إلى الجمال. ولقد حدث في ذاك المساء، ولم أكن أعرف بعد أي مساء حاسم سيكون هذا المساء بالنسبة إليّ، أن انتبهت إلى حضور طيور السّمان فوق أزهار البيلسان، كانت هذه الطيور تشكل فواصل في سماء الشتاء الفسيحة جدا". بدا لي كل شيء أصغر من المألوف، ويمكن العيش معه، وحسب قياسي، أصغر بشكل زائف ويمكن العيش معه بشكل مخادع وحسب قياسي لأني أستطيع أن أتابع طيران السمان المتعرج في السماء من طرف إلى آخر. كان سحاب النهار يتلاشى في الأفق،

فتظهر بنايات الضواحي المقابلــــة أوضــح للعيــان، وفــي الشــمال كانت المعـــالم الأثريـــة للعاصمـــة تــبرز خطوطــها وقــد ازدادت وضوحا في أسفل السماء، كأنها توقع في آخــر الصفحــة، أمــا مــن جهة البحر، فلقد ظهرت أراضي الحدود الممتـــدة والخاليــة. كــانت الظلال تنتشر، ويتساقط الغبار ثانية تحت أقـــدام المشــاة ، فتتكــوم الأشياء على الأرض وتشغل الســماء الحـيز كــاملا". كنــت أقــول في نفسي إن وضعي لا بأس به، هنــا، أنتظـر زوجــي فــي هــواء المساء،.ويستحسن في المستقبل أن أتمتع هكـــذا بوقتــي، ولا بــد أن يكون المخبز قد أغلق، مما اضطر زوجـــي أن يبحــث عــن مخــبز آخر يقع أبعــد مــن الأول، وقــد توقــف، هــو أيضــا"، ليستنشــق الهواء.

لامست الشمس ســطح البنايــات، واســودت الضاحيــة أمــام السماء، في حين كانت الشــمس هنــاك وقــد امتــدت وراء الأفــق، تدفئ وجهي بعذوبة، فتلون لمستها وجنتــي بــالاحمرار. كنــت أرى رأس أنفي منشــطرا" وقــد راح يــأخذ اتجاهــات متعارضـــة تتفــق ورؤيتي إلى الجنوب أو إلى الشمال، وكذلــك مــع شــبكة رموشــي المهتزة جدا" في النــور؛ كنــت أحــس أنــي قــد أصبحــت شــيئا" ضخما" وحارا" يهتز. ذاك المســاء ، حــدث هــذا للمــرة الأخــيرة، على ما أذكـــر، نجحــت أن أشــعر بذاتــي وحــدة كاملـــة، مــلأى ومضغوطة ؛ ثم انطلقت مثل الكواكب، وقــد تبخــرت بعيــدا" جــدا" مثل النجوم الحمراء. انسابت الشـــمس بيــن أجفــاني، لــم يبــقَ إلا خط ضوء دقيق ،انطفأ فجأة وأصبح أنفـــي كتلـــة صغــيرة بيضـــاء وضعت قريبا" جدا" تحت عينـــي.

دب البرد في وجنتـــــيّ ، وشــعرت بــأني جائعــة . أردت أن أبتعد عن النـــافذة لأرى الســاعة، ، ولكنـــي بقيــت فــي مكــاني ، لأستمر في الانتظار قليلا" ، لا أريـــد أن أقبــل أن تــأخر زوجــي قد أصبح أمرا" تشتد غرابته ، وخـــارج ذاتـــي ، فيحســب بالدقــائق وبأرباع الساعة . تركت الغضب يكبر فــي أعمــاقي ، شــأنه شــأن آخر قبس شمس أشعلته ثانية بين يديّ كـــي لا أبقــى وحيــدة علــى النافذة وسط البرد. أذكيت غضبـــي ، وكذلــك جوعـــي ، وتحديــت نفسي كي لا آكل قطعة مـــن الجبـــن ، وشــعرت بــالزهو مــن أن أترك جوعي يزداد وغضبي يحتد حتى أسقط ذلـــك علـــى زوجـــي : من أخره في شـــوارع الضاحيـــة ، أي جـــار بليـــد وثرثـــار ، أيـــة تسلية بائسة أخرته ثانية علـــى أرصفـــة الطرقـــات فـــراح يتســكع بينما أنا أموت جوعا" ؟ كانت أزهـــار البيلســـان قـــد بـــهت لونـــها ، وبعض أوراقها الأخيرة كانت تشع ثم كبـــت فجـــأة ، كمـــا الشـــمس هذا المساء، بعد أن كانت قرصا" أحمر بـــرز منفصـــلا" عـــن ســـماء بيضاء ، لم يكن منها إلا أن هوت إلى الطـــرف الآخـــر مـــن الكـــرة الأرضيـــة . كـــانت طيـــور الســـمان تتـــابع طيرانـــها المتعـــرج ، وبعضها يحاذي نـــافذتي ، كـــانت أجنحتـــها زرقـــاء ، وعنقـــها قـــد انتفخ ، ولم يكن جسمها إلاّ صفارة امتلأت بالـــهواء ، كـــأن جســـمها جناحان خاويان حول صيـــاح .

راح الجو يثقل شـــيئا" فشـــيئا" . فكـــان المـــرء يشـــعر تحـــت الدفء بلفح باردٍ ، كأنه إحـــدى مزايـــا الســـكون الحســـية . كـــانت طيور السمان تنقض علـــى دعاســـيق نباتـــات البيلســـان عنـــدي ، أدخلت أحواض الزرع هذه ، إنه عمـــل يشـــغل حـــيزا" مـــن وقتـــي

المسائي ، وضعتها هنـــاك ، عنـــد قدمـــيَّ ، تحـــت النـــافذة . كـــان يهمني ألا أترك النافذة ، ربمـــا لـــم يكـــن انتظـــاري لزوجـــي قـــد استغرق إلاّ وقت استراحة أنظر خلالها إلــــى المدينـــة كمـــا تفعـــل أية ربة منزل تســـتريح مســـاء" بتدخيـــن ســـيجارة ، قبـــل العشـــاء وهي تتنـــهد .

توقفت الطيور عن الصياح ، وهـــوت الشـــمس بعيـــدا" جـــدا" فلم تعد ’ترى. انتثر النور مرتيـــن أو ثلاثـــا" علـــى أجنحتـــها ، ثـــم سادت العتمة ، خـــلا الـــهواء مـــن العصـــافير، وقـــد كـــانت مثـــل الزوابع في مغسل ضخمٍ . بقيت وحدي أهيـــم فـــي المســـاء ، علـــى سماءٍ لطخت أطرافـــها.

على نور البراد المفتوح ، رحت أشتم زوجـــــي . كـــان هنـــاك قرصا بندورة وقطعة صغيرة من الجبـــن ، ممـــا يكفـــي لتحضـــير طبق معكرونة . حين يعود ســـيجد فـــي انتظـــاره الطعـــام جـــاهزا"، معدا"، منتقما"، كما ســـيجد اللـــوم هلاميـــا" مصقعـــا" فـــي صحـــون باردة . كان آخر شعاع أحمر ينساب فوق خشـــب المطبـــخ ، فيبـــدو حوض غسل الأواني باهت اللون ، وســـائل الغســـيل كثيفـــا" غامقـــا" في زجاجته التي يتفق شكلها وقبضة اليـــد . نظـــرت إلـــى الســـاعة على الفرن الكهربائي الـــذي يمكـــن برمجتـــه ، أفلـــتَ فجـــأة بـــاب البراد ، وأمسكت بالـــهاتف .

لمْ أتصل فورا" بالشرطة. اتصلت بجاكلين . لـــم أحدثـــها عـــن تأخير زوجي، كنت أريد أن أعـــرف فقـــط (يـــا للســـذاجة) إن لـــم يكن زوجي عندها صدفة . إن ســـماع جـــاكلين، جـــاكلين وحدهـــا، وصراخ الأولاد، وطقطقة الماء في الحمام، كـــل هـــذا كـــان يحـــدث

أحسن الأثر في نفسي، فثبات جاكلين وأنا في بـدء قلقـي، والحيز الذي تشغله وتبرز منه يشبه نشاط السـنونو. ففـي عـالم جـاكلين لا يمكن أن يختفي أحد هكذا ، بذهابه لشـراء الخبز. قـالت لـي: إني مشغولة جدا" وطلبت مني أن أكلمها فيما بعـد. قلـت مسـرعة: ماذا تطبخين ، وإثر سـماعي صوتـها وقـد نفـد صبرهـا، كنـت أستطيع أن أشتم طبق المعجنات الذي تعبـق رائحتـه الذكيـة مـن الفرن ، وأرى الفوضـى البهيجـة تعـم شـقتها ، والأولاد يغطـون بفقاعات الصابون السجاد الأكثر طراوة من سـجاد بيتـي. انتظـري لحظة ، جاكلين، ألا ’تبث هـذا المسـاء، علـى شاشـة التلفزيـون، مباراة في كرة القدم؟ أية مباراة في كرة قـدم. المبـاراة التـي كـان الرجلان سيشاهدانها, عما تتكلمين . تركنـي هـذا الحـوار الـهاتفي القصير أتـأرجح بيـن وضعيـن يصعـب احتمالـهما . لا شـك أن حضور صديقتي بكلماتها اللاذعة (والتـي لـم يكـن لديـها الوقـت للمكالمـات الهاتفيـة أو لرؤيـة الـبرامج التـي تبثـها الأقمـار الاصطناعية ، لاشيء يمكـن أن يفكـك جـاكلين فصوتـها علـى الهاتف يلخصها بأمانة) ، قد طمـأنني ، ولكنـه أشـعرني بوحدتـي كذلك ، كنت على شاطئ بحر فسـيح أرى جـاكلين تبتعـد ، وهـي تلوح بيدها شـاردة .

فتحت التلفزيون ، كانت نشرة أخبار السـاعة الثامنـة مسـاء" قد انتهت ، وبدا لي أن المذيـع مـن لحظـة إلـى اخـرى سـيأخذ مظهرا" حزينا" ليعلن اختفاء زوجي ، وقد قلبته سـيارة نقـل كبـيرة وهي تعود مسـرعة جـدا" إلـى المسـتودع ، أو صدمتـه دراجـة نارية يركبها نـاقل الأطعمـة الجـاهزة إلـى البيـوت ، أو سـحقته

سيارة تكسي مستعجلة في آخر جولة تقوم بها . كانت الشوارع مقفرة ؛ بدأت الدعايات تتتالى في التلفزيون ولم أعد أسمع أي صوت من الخارج . استطعت آن أغلق التلفزيون ، اختفت الأصوات ، وللمرة الأولى ذاك المساء أحسست بموجة هلع تجتاحني ، فشراء خبز لا يستغرق ساعة ، كما أن زوجي ، الذي يعي دوما" مسؤولياته، لا يمكن أن يدعني أنتظر هكذا دون إخطاري إذا ما توقف مضطرا" ليشرب قدحا" في مكان ما.

بدأت القيام بجولة منتظمة في الحي : سلكت الشارع العريض حتى وصلت إلى المخبز ، ثم اجتزت الشارع ، نظرت بإمعان إلى جداول أوقات الدوام المعلقة كما ألقيت نظرة سريعة عبر الستارة . لم يكن زوجي هناك . تابعت السير حتى المخبز التالي ، كانت واجهته فخمة ، زينت بحصاد برزوا من أفق مليء بالقمح على لافتة كتبت بأحرف تحاكي الطراز القديم ، لم يكن زوجي يتردد على هذا المخبز البتة . ومع ذلك وقفت على أطراف قدمي لأنظر إلى الداخل ؛ ولكن من خلال الشبكة الحديدية الرقيقة التي تشبه طواحين الهواء ، لم يكن هناك إلا الخبز اليابس .

كان هناك مخبز آخر في مفرق الطرق ، وكان كذلك خاويا" مظلما". أما الشوارع التالية فلم يكن زوجي يسلكها البتة. راح قلبي يدق بشدة ، أين أبحث في غير المخابز ، إن عجزي أمام الشوارع المقفرة قد أنهك ساقي ، فانفصل جسمي عني ليمتلئ بسائل غريب كأنه صار حوضا" من الطحين أو من الدموع .

عدت أدراجــي . كــانت تكفــي حركــة فــي الأغصـــان ، أو اهتزاز نور المصابيح ، لكي ألاحظ كلينـــا ، نحـــن الاثنيـــن ونحـــن نسير في الشوارع ، في أمسية كـــهذه الأمسيات حيث كـــان ظلنـــا المـــزدوج يتقدمنـــا ، أن الســـماء شـــيء رائـــع ولا تنتـــهي وراء الأسطح . أدى بي السير إلى الســـاحة ، كـــانت ســـاعة دار البلديـــة متعطلة ، راحت عيناي تنظران بلا تحديـــد ، كـــأني ســـأرى فجـــأة كلينا نحن الاثنين ، وقـــد جلســـنا جنبـــا" إلـــى جنـــب علـــى حافـــة الينبوع، وعيوننا تهيم في الفضاء وفي الســـماء . بللـــت أصـــابعي . تحولت طقطقة الماء إلى خشخشة على عـــوارض بـــلاط الحـــوض، وقد بدت تسبح بين مـــاءين . لا شـــك أننـــا ، بعـــد عـــدة دقـــائق ، سنضحك ارتياحا" (كان هذا سوء تفـــاهمٍ ، انزلاقـــا" فـــي الزمـــن ــ المكان ، فقدان ذاكرة خفيفا" جدا" ولمـــدة قصـــيرة جـــدا" مـــا حـــدث لزوجي ، إنهائه يهيم الآن على بعد مائة مـــتر منـــي ، فـــي أعـــالي السماء ؛ راح طائران من السمان وقـــد أصابـــهما الأرق يضحكـــان من ضياعنا فـــي تقطيعـــات الشـــوارع ، وكذلـــك الأردواز والآجـــر والقرميد والحجر الكلسي) . بقيت هنـــاك علـــى حافـــة الينبـــوع ، و قد شحذ شعوري كأنه نصل ولكنه غير مصوب نحـــو هـــدفٍ ، إنـــه هوة ، توتـــر أعصـــاب خـــاوٍ . كـــانت كتلـــة ســـائلة تصعـــد إلـــى صدري، فتنتفخ فوق عظامه وترغـــب فـــي أن تفجـــر أضلاعـــي ، فإذا ما تحركت انســـكبت' كـــبرميل . تجمعـــت الســـاحة حولـــي ، وراح بلاط الحوض يعوم على السطح ، وكـــانت المصـــابيح ترســـم حصى حمراء مـــن الطريـــق المعبـــد . انتصبـــت واقفـــة . طقطـــق السكون كما الجمرة . تأرجحت أعماق الســـاحة ، وراح كـــل شـــيء يرتجف كأنه تحت ضربة صنجٍ ، واهـــتز الـــهواء علـــى الأرض .

كنت أرى بريقا" ينزلق على الواجهة ، كأنه خيال وحيد ظهر في انعكاس .

راح الينبوع يسيل ورائي فاستيقظت فجأة ، كان زوجان من الجيران يمرّان ، فألقيا السلام عليّ. تذكرهما جسمي وحده . لفظت " مساء الخير " في الصمت وانطوت الكلمة كجناحين أسودين ، سمعت خطواتي ترن .

قرعت باب بائعة الخبز. 'فتحت نافذة ، وظهر وجهها ، تحيطه هالة زرقاء عكسها ضوء التلفزيون . أحسست أنني بلهاء. سألتها : هل تتذكرين رجلا" طويل القامة إلى حد ما ، يلبس ثيابا" قاتمة ، قد جاء يبتاع خبزا" في تمام الساعة السابعة والنصف ؟ نظرت بائعة الخبز إليّ فزعة . احتجت قائلة : إن كان عليّ أن أتذكر كل زبائني ! ... ابتعدت وأنا أفكر مليا" في جوابها . لم تكن عندي أية رغبة في أن أروي قصتي . لم أكن أرغب في أن ألفظ هذه الكلمات ، وهي أن زوجي لم يعد إلى البيت .

لم أكن أستطيع أن أفترض زوجي عند امرأة أخرى بينما أنا أطوف الشوارع هائمة أبحث عنه ؛ لم يكن في استطاعتي أن أفكر في ذلك ، ليس لأني اكتسبت إخلاصه ، لكن لأن زوجي كان إنسانا" منطقيا" منسجما" مع نفسه ، لا يتركني البتة هكذا وحيدة أقلق : وكان يفضل أن يتصل بي هاتفيا" ليخبرني أنه في طريقه إلى المخبز قد فكر بملف مستعجل ، وأنه رجع إلى المكتب ، وسيعود في ساعة متأخرة جدا" . في مكتبه ، كان الهاتف يرن بلا مجيب . ومع ذلك كنت أراه ، بشكل واضح

ومؤلم ، كان هناك ، وقد انحنى على الحاسب ، يداعب فأرته، ونبتة (اليكّة) التي أهديتها له في عيد ميلاده تنمو في الجو المثقل ، والكرسي يئن أنينا" خفيفا" تحت ثقله ، كان هذا يثيرني دائما" ،. هذا الكرسي الأبله يتلوى تحت الوزن الفعلي لزوجي الضخم . ضغطت على زر " كرر" في الهاتف ، عادت أجراس الهاتف إلى الرنين، آليا" ، كأنها نوّمت مغناطيسيا"، فكان كل جرس يغرس إبرة ساحر في عمودي الفقري فأغلقت عينيي إثر ألم غريب متباعد و رتيب .

ألصقت جبيني على الزجاج ، و ذراعاي تتأرجحان والسماعة في يدي . كنت أسمع عن بعد غياب زوجي يرتسم نقطا" من الرنين . كانت هذه الأجراس تدق عبثا" في كل مكان على ساحة الشارع المبلطة ، في كل مكان فوق الضاحية حتى البحر وحتى المعالم الأثرية. راحت قطرات تنساب تحت جبيني الملتصق بالنافذة ؛ وفجأة أدركت أن هذا قد حدث فعلا"، وأني لم أكن أحلم ، وأن زوجي لم يعد هذا المساء بعد أن ذهب ليشتري خبزا" ، وأن هذا كان الواقع ، وأن هذا كان موجودا" . وفي الأيام الآتية ، كان علي أن أختبر باستمرار هذه الصدمة في القلب ، لقد انفلت فجأة الأدرينالين الذي تفرزه غدة الكظر ، فصعدت موجة كهربائية لتتوقف في أطراف أصابعي و تشل حنجرتي ، و تجمد أعضائي وتتوقف لزجة في تشعبات قصبات صدري العميقة ؛ سيصبح الأدرينالين ، في الأيام الآتية ، في شراييني وفي عضلاتي، سمة الواقع ، ووسيلته وقوامه .

(٢)

كنت أرتجف وأنا جالسة على كرسيٍ صغـــير فــي المطبــخ ، إنه أحد الكراسي الصغيرة ذات اللون الأصفر الفاقع التـــي كنـا قــد اشتريناها إثر إقامتنا في هــذه الشــقة ، إنــي أتذكــر كلينــا ننــاقش اللون ، كان زوجي يفضلــــها بلـون الخشـب الطبيعــي ، تمسـكت بأرجل الكرسي من الأسفل ، وقد جلست فــي المطبــخ ، بوضعيــة لا معنى لها ؛ كما لــو كــان زوجــي سـيعود الآن، ليكـرر علــى مسمعي أنـــه كـــان مـــن الأفضـــل لـــو اشـــتريناها بلـــون الخشـــب الطبيعي، كان يبدي زوجي أحيانا" أسـفا" مــن هــذا النــوع . كنــت أرى نفسي معه في المخزن الكبـــير، وكـــان الواقـــع هـــذا أيضـــا"، سطحية الواقع الناعمــــة الملمـــس ، فرشـــه بأثـــاث عملـــي وبثمـــن مقبول . رحت أمرر أصابعي على الطاولـــة ، كنـــت شـــبه مشـــلولة وقد ُصدمت بواقعين مختلفيـــن تمـــام الاختـــلاف، يســـتحيل تفســـير اختلافهما ألا وهما غياب زوجي والكراســـي الصغـــيرة الصفـــراء ، رحت ألمس بأصابعي الطاولة وقد كـــان مـــن أبســـط مـــا يمكـــن ، ومن الطبيعي جدا" ، أن أجد بقايا طعامنا ، فتـــات الواقـــع ، الواقـــع الذي نسكنه ، يكون فيه زوجي قد عاد بكل بســـاطة يحمـــل الخـــبز .

أصبح الليل الآن دامـــس الســـواد . نـــهضت واقفـــة . ربمـــا يخف الخواء في صدري إذا ما قمت بحركـــــة ، تلاشـــى ثقـــل هـــذا الفراغ الغريب ، ثم عاد من جديد ، أخذ مكانه ، وقـــد تمركـــز بيـــن عظامي تماما" ، يحفر في أعماق صدري ، بشكل مؤلـــم جـــدا" قـــد يدفعني أن أبصق دما". التصـــق جبينـــي ثانيـــة بزجـــاج النـــافذة .

راح المطر يسقط رذاذا" نديا" ليصبح كل شيء ضبابيا" لامعا" ، فخرج كل جدار عن شكله الخاص به ، وبدت الأسطح غير واضحة للعيان ، كما أخفى الضباب الحشرات . حينئذٍ رأيت زوجي يعود ، بخطواته الكبيرة والمتعرجة قليلا"، بمعطفه ، بكتفيه المقوستين ، وبمظهره الطويل . نزلت السلم وأنا أركض. كان الشارع قفرا". سرت بضع خطوات في اتجاه ، ثم في اتجاه آخر . وقفت أصيخ السمع . رأيته عن بعد ، أمامي ، وقد تركت قدماه خطوطا"على أرض الشارع الرطبة ؛ ركضت ، كان يدير ظهره لي ، ناديته . نظر رجل إليّ باستغراب . إنه لم يكن زوجي . على كل حال ، لم يكن هذا معطفه على الإطلاق.

صعدت ثانية إلى البيت وأمسكت سماعة الهاتف ، بدا لي كأن مطلع شخصٍ سيحدثني، مظهر صغير جدا" من زوجي . أدرت رقم حماتي . كانت حماتي قد أصيبت بالمرض فجأة ، وكانت بائعة الخبز قد أعلمت زوجي بذلك ، فذعر ولم يفكر بإعلامي ، ربما كان في المستشفى قرب سريرها . أجابني صوت ثقيل يتكلم بصعوبة .أدركت أن الوقت متأخر حقا". قلت اسمي . سمعت صرير مزلاج . ضغطت على زر "كرر" . رددت اسمي ثانية بصوت مرح ، وأنا أعتذر بسبب الوقت المتأخر .

لم أعد أسمع سوى تنفسٍ خشنٍ ، نبضٍ يكاد يلمس يحدثه دفق دماغي ، إنه الشكل الذي يأخذه ، بين شخصين يتواصلان في الظلام ، جهد ما ولربما تردد الذاكرة . حدث نوع من الانقطاع في هذه اللحظة بيني وبين حماتي ، إنه نوع من

الانزلاق وجب عليّ فيه أن أتصرف ، أن أتمسك بشيء ما ، أن أتفوه بإحدى هذه الجمل التي تفتقر دوما" إلى الكلمات : لم أجد شيئا" أجيب به ، ولكني وجدت جملة يستحيل فهمها ، تمت إلى الميتافيزيقيا ، جملة تدفع إلى الوجود . كيف أقول لها إن زوجي، ابنها ، قد اختفى ؟ حدث أن بيني وبين حماتي في هذه اللحظة ، لحظة قصيرة جدا" قشطها الليل ، قد عبر حلم كما تمر الملائكة على حد قول المثل. ففي السكون ، كنت منسية مثل اسم على رأس اللسان ؛ كان لدى حماتي شعور بوجودي (في الحقيقة كان هذا شعورها دوما" : كنت موجودة ، كنت زوجة ابنها)، على كل حال كان هذا الإحساس كافيا" ليجعل مني كنتها؛ كانت تتذكر شعرا" أشقر يتدفق وطابقا" خامسا" اكتظ بالكتب ولحظة خاطفة في دار الحكومة ، حيث قال ابنها نعم لهذه الكتب ولهذه الشقرة.

لكني أحسست الحلم يختفي دون أن أستطيع أن أمسك به، دون أن أستطيع أن أقول الجملة التي تبقيه بيننا، وتجعلنا، بقوة، حليفتين. استمرت أصواتنا المتصلة من هاتف إلى هاتف تصعد عبر الفضاء لتقفز على صفائح الأقمار الصناعية وترتد بسرعة فائقة حتى إنه كان بودي أن تسبقني عبارتي التي لم ألفظها، أو تؤلفها شبكة الهاتف بدوني فتتردد مدوية، في الفراغ بين النجوم، إلى أن تجمعنا نهائيا". هناك سمعت، حيث يجيب على الصمت المريب في طرف الخط، ما يشبه نفحة جناح مترنح ، ثمة شيء كان يهرب ، واستطاع الطيران بتثاقل.

تهاويت بين الأقمار الصناعية ، أسقط من تلقاء نفسي في الظلام ، أفلتني الثقل ، أجل أفلتتني جاذبية حماتي الأرضية العظيمة ، أفلتتني الذبذبات التي كانت تربطها بابنها . ومع ذلك، دون أن نستطيع التلاقي، كنا كلانا ، من الطرف الآخر لدائرة الرماد هذه التي التف حولها الأحياء الذين ما زالوا بعد معافين وقد أحاطوا بمصاصي الدماء و بالمؤذيات و بالذكريات المؤلمة. ففي الفراغ الهائل الذي انفتح بيننا، همست بكلمتين قبل أن أغلق الخط ، اعذريني .

في ليالي الأرق، حين كان يبدو لي جسم زوجي الضخم وهو نائم كجزيرة وسط السرير الشاسع، كنت أرى الأثاث يتحرك، وكنت أتيه من شدة ما أحدق في الظلام؛ حينئذ كنت ألتصق به (لم يبدُ لي شيء على الإطلاق أكثر يسرا" على غموضه، ومألوفا "ومحسوسا" من جسم زوجي الضخم والنائم) . أضأت الأنوار كلها. أدرت رقم الطوارئ ، وانتظرت طويلا"، وأنا أقاوم كي لا أشعر وأنا وحدي بأني أكثر جنونا" مما كنت عليه فعلا"، معكم الشرطة على الهاتف ، ابقوا على الخط . بعد ذلك ، وبصوت ينبض بالحياة، استطعت أن أشرح ما حدث معي بكلمات بسيطة واضحة ، مضى أكثر من خمس ساعات و زوجي لم يعد ، كان الواقع جليا"، والمهلة كافية . لقد أبدوا اهتماما" بحالتي . سجلوا اسمي، وطلبوا مني أن أتصل بهم ثانية غدا" إن كنت لا أزال بلا خبر عنه، كان الصوت مهذبا" ، لم يلمّحوا بشيء، وآثروا أن يحتفظوا لأنفسهم بإحصاءاتهم عن الخيانات الزوجية .

فتحت التلفزيون عاليا"، كـــان هنـاك نقـاش بيــن مرشـــحين للانتخابات الآتية ، مناقشة ُتبث علــى الــهواء مباشــرة ؛ انتــابني شعور سخيف وهو إذا ما ألمّ بـي حــدث مــا (كــأن يفتــح البــاب على مصراعيه و يحضر لي خــاطفو زوجــي خنصــره وقـد لــف بورق جرائد) ، أستطيع أن أســتغيث دائمــا" ، فيــهب المرشــحان وبصوت واحد يطلبان عمل شــيء مــا مــن أجلــي . مشـيت فــي الشقة . ما زلت أســـمع داخــل غرفــة نومــي أصواتــهما ، كانــا يتحدثان عن أشياء واقعية ، عن أرقام ، كـــان الصحفيــون يطلبــون منهما وقائع ، وكان هذا ينشــطني . ابتســمت وأنــا أتذكــر زوجــي صباحا" أيام الانتخاب ، عوالمنـــا الجديــدة حيــن تتــاول فطورنــا ، احتفالاتنا ، أنا وهـــو ، فــي المطبــخ ، فــي حيــن كــانت قدمــاه العاريتان تدق بعصبيـــة رجـل الكرســي الصغـير وقـد انتصبـت رقبته ، زوجـــي ذاتــه، ســينتخب وهـــو يحتســي بحمــاس كــأس الشوكولا الحارة ، كـــان ينــهض ، فأتبعــه ، ونخــرج ، متــأنقين، فنجتاز شوارع الضاحية ، ونحيــي ســكان الحــي ، كــان زوجــي يستنتج من طريقة جارتنا وحدها في ترتيـــب زهــر (الجــيرانيوم) أنها لن تنتخب من ننتخب . كـــان يدخــل إلــى الغرفــة الانتخابيــة المنفردة و (كنت واثقة دون أن يكــون لــدي أيــة براهيــن) أنــه في آخر لحظة، إثر ردة لا إرادية ، كان نــــوع مــن الحــس الســليم القديم والموروث عن أمه قد سيطر عليـــه : إن زوجــي وقــد تــأكد أن الستار مسدل تماما"، وأنه بالرغم من طول قامتــــه ، لــن تخونــه التجاعيد العلوية لجبينه المنـــافق مــن فــوق قضيــب الســتار ، دس في المغلف القائمة الرديئة ، ضاربــا" عــرض الحــائط باندفاعنــا ، وقد أعطى موافقة تامـــة علــى الوضــع الراهــن . بــدت صــورة

التلفزيون الزرقاء تنبثق خارج إطاره وترشـح مـاء" فـي الـهواء ، وقد علقت في الفضاء مثـل سـتار الحَمـام. ألقيـت بنفسـي علـى الأريكة ، أحطت وسادة بذراعيـيّ وخبـأت فيـها رأسـي ، كـانت تنبثق منها رائحة الغبار و الخشـونة ، شـعرت فجـأة أننـا قـد لا نبني معا" بعد الآن عالمنا هـذا المؤلـف مـن وجبـات فطورنـا ، وأنني منذ الآن قد أنتخب وحدي وقد تركني أجـهل أبـدا" مضمـون مغلف انتخابه ، ولربما لن أسـتطيع بعـد الآن ، أن أشـك بزوجـي الخائن ، ولا أن أراقبه ولا أن أكشـف تناقضاتـه .

في الأيام التالية والأسابيع المقبلـة ، سـأتحقق ، بملـل يـزداد يوما" بعد يومٍ ، أن نمط حياتي سـيكون مـن الآن فصـاعدا" علـى هذا النحو ، متعاقبا" وشاقا": أحلامـي المألوفـة ، وذكريـات حياتنـا المشتركة ، قد انمحت وتلاشـت ، وقـد مسـحها بطلقـات رتيبـة بارود مدفع هذه الحقيقة المحسوسة : ألا وهـي غيـاب زوجـي .

في هذه الليلة الأولى ، استطعت أن أتدرب بشـكل كـافٍ كـي أقوم بتصرفاتي اليومية (وكأنهم قـد نجحـوا فـي إعـادة زوجـي إليّ: كنت أشـاركه وحـده هـذه التصرفـات) . نظفـت أسـناني بالفرشاة ،وأنا أحـاول ألا أنظـر إلـى الفرشـاة الثانيـة ، الزرقـاء المتآكلة . كنت عاجزة، خلال حفلـة لعبنـا فيـها ، أن أذكـر لـون فرشاة أسنانه ، خجلت من ذلـك وكأنـه نـوع مـن عـدم الاهتمـام بزوجي ، و مـن ضيقنـا المشـترك ، بـدا لنـا أننـا قـد أعطينـا لأصدقائنا دليلا" على فتور حبنا) ، كما لو كنا قـد وقعنـا فـي فـخ أوحت به الطرق البوليسـية للكشـف عـن الزواجـات الشـكلية ،

كان قد حدث ذلك أيضا" ، يوم زواجي ، أحسست وأنا في بذلتي البيضاء البسيطة،

ما يمكن أن يلبس في الأيام العادية بعد أن تنزع الأشرطة عنها ، أن الأنظار المليئة بالشك قد صوبت نحوي ، ليس لأن لبس الأبيض يستلزم أن تكون الفتاة عذراء ،ذلك أن أسرتينا كانتا متحررتين وقد تجاوزتا منذ زمن طويل هذه العادات ، ولكن بدا لي أن الناس يتساءلون كيف استطعت أنا المخادعة المتحذلقة ، ذات الكلام الغريب ، والنظرة التائهة ، والشعر الخفيف ، أن أقنع رجلا" مثل زوجي ، وهو الإنسان الشريف ، والذي يعي مسؤولياته والميسور ماليا" أن يتخذني زوجة له ، هو الذي لم يكن يجهل (لا أحد كان يجهل ذلك) أني سأمضي وقتي في البيت أدرس متكاسلة ، نادرا" ما أنظف المنزل ، والأندر من ذلك أن أعد وجبات خفيفة . كنت أشعر في أعمق عضلاتي ، وقد امتلأ فمي بمعجون الأسنان ، باندفاع يقطر حرمانا" بأن ألقي بنفسي على عنقه ، وأن أطلب منه مسامحتي على تقصيري كله .

خطر لي أن أطفئ النور دون أن أتفحص كما أفعل عادة حفر التجاعيد في وجهي ، ولا أن أطلي وجهي بمرهم ليلي ، إلاّ أن فكرتين متلازمتين قد أوقفتاني ، الأولى هي أن من البديهي ظهور زوجي ثانية منذ الغد ، وأن كل شيء سيعود إلى مجراه، لقد أصابته نوبة من الجنون فأبحر إلى الجزر ثم عاد وهو يسبح ، وقد استرجع كامل وعيه ؛ والخاطرة الثانية هي

كبريائي ، و على كل حال إني أعتني بجمـــالي كـل مســاء وكذلـك كل صباح من أجل نفســـي .

حين خرجت من الحمام شعرت بتحسن خفيـــف . ولكنـــي مـا إن رأيت غرفة الجلوس مقفـــرة ، والتلفزيـــون مفتوحــا" ــ يرسـل ضوءا" أخضر على بساط الغرفة ، و كان يبث فلمـــا" وثائقيـــا" عــن منطقة الأمازون ــ ، حتى تساءلت ثانية كيـــف أســكن هــذه الشــقة الخالية ، ولم أعد أعرف ، حقا" ، إن كنـــت أنتظـــر زوجـــي ، أم أن هذا الانتظار قد تحول إلى شيء آخر ، إلـــى حالـــة عامـــة ، إلـــى مرض . لم أعد أشعر بشيء ، مجـــرد اضطـــراب خفيـــف ، توتـــر بلا هدف ؛ عجز يشبه تلك اللحظـــات حيـــث كنـــت أريـــد أن أفـــهم ماذا يجمعنا (ســـؤال لا معنـــى لـــه ، كنـــت أعـــرف ذلـــك ، ولـــم يطرحه مطلقا" عشاقي الذين ربطتنـــي بـــهم علاقـــة ، ولكنـــه ســـؤال ملح ، لم أستطع أن أفلت منه شـــأنه شـــأن ذكـــرى أمواتـــي). فـــي تلك اللحظات التي صممت فيها أن أفهم حبي لزوجـــي (كمـــا حـــدث ذلك ليلة زواجي ، أو إثر رجوعي عـــن رغبـــات خيانـــة) ، كنـــت آمل جوابا" ينفجر على شكل إحساس آنـــي صـــاعق مذهـــل ؛ ولكـــن في هذه اللحظات تماما"، كنت واثقة أن مـــا يســـمى شـــعورا" ، هـــذا الانفعال الذي تفرزه الحيـــاة اليوميـــة ، ســـتفتته مـــدارات دمـــاغي . كنت أنتظر برهانا" حسيا" ، حين يؤثـــر الســـؤال وكأنـــه منظـــف ؛ كان الحب المفترض ينكشط مع تـــآكل أعصـــابي فـــأبقى ملســـاء ، صلبة صلابة المينا. كنت أحاذي تلك المناطق حيـــث يؤمـــن النـــاس بـــالحب العظيـــم ، بلقـــاء القلـــوب العنيـــف ، بالاندفـــاع العـــاطفي المشبوب : أي كل ما كان علـــيّ أن أشـــعر بـــه بمجـــرد أن أفكـــر

بزوجي . لذا كنت يائسة ، وكان قلبي يابسا" متلبدا" ، قعره في منتهى الأنانية ، جوانبه جوفاء خالية ، أما الروح ففي القشرة ، وكان زوجي تعسا" جدا" .

في هذه الليلة، أول ليلة لي بلا أي خبر من زوجي بعد سبع سنوات من الحياة المشتركة، كانت مشكلة اختفائه قد تركتني في بلادة تفوق بلادة حبي . إلا أن المقارنة قد أنقذتني من الهلع الكامل (من رنين جرس الحزن الذي كان يقطّع انتظاري المتزايد غموضا"، وهو يحفر صدري بشكل محسوس) ؛ لأنه كان عليَّ أن أسلم بالبداهة المزعجة ألا وهي أن صدمة غيابه شأن صدمة الأدرينالين ، هذه الصدمة التي كنت أبعدها بكل قواي ، وأحاول أن أنسى أنها تطغي عليّ بشكل متكرر وتتدفع من أطراف أصابعي ، كانت صدمة الأدرينالين البرهان المنتظر لحبي لزوجي .

إن ما أنقذني من نوبة الهستيريا ، هو يقيني الكبير ، حوالي الثالثة صباحا" ، أن زوجي لم يخرج مسرحية اختفائه هذه بكامل السيناريو إلا ليجعلني أعي من جديد حبنا ، وغايته الوحيدة هي أنه حين يرى (بأم عينه) البرهان على يأسي ، حينئذ يعود عودة الفاتحين ليتلقى وابلا" من الصفعات التي لن أتوانى عن تسديدها إليه ، يا له من مغفلٍ ، بعد أن تركني مدة من الزمن فريسة مخاوف الترمل .

لكن زوجي ، هذا اليقين الآخر استحوذ عليّ حوالي الثالثة والربع صباحا" ، كان رجلا" ضعيف الخيال ، أضف إلى ذلك أنه كان في منتهى اللطف : حتى إذا كان الشك يزعجه كثيرا"،

فلن ينفذ مطلقا" خطة كهذه لينتزع مني اعترافا" بحبـــه ؛ ولكــان قــد فضل التهديد على الصمت . مـــازال الفلــم الوثــائقي عــن الغابــة الاستوائية ’يبث ، كـــانت الغرفــة خضـــراء تمامـــا ، وإثــر هــذه الخاطرة الجديدة وهي أن زوجي لا يمكنـــه أن يختفـــي مطلقـــا" مــن أجلي (وهي فكـــرة عكــرت مزاجـــي) ، أحسســت الــهلع يعــود ثانية، يضغط عليّ بأصابعـــه البـــاردة ، وقلبـــي يتخبـــط ، وراحــت الأعراض الجسمية تنتابني عنيفـــة : تســـارع النبــض ، وانسـياب العرق في ظهري ، ولـــهاث متقطـــع . كـــان زورق ينســـاب فـــوق قنوات الغابة ، وقد ’صور بمحاذاة المـــاء ، كـــان ثمـــة أنـــاس وقــد بدت الحيرة عليهم يحـــاولون أن يمســكوا رأس مركـــب لا وجـــود له تحت طبقـــة مـــن الأوراق ، والأغصـــان ، والأعشـــاب الطويلـــة المتسلقةِ ، وكان صراخ القـــردة يـــدوي فـــي الغابـــة وتـــدوي معـــه أصوات أخرى فظيعة لا أدري ما هي ، كـــان ثمـــة فقاعـــات ثقيلـــة بنية اللون تتفقع إثر المركـــب ، فتلتـــوي زعنفـــة ، ورحـــت أختنــق شيئا" فشيئا" ، عاجزة عن أن أغير القنـــاة ، وقـــد تســـارعت دقـــات قلبي ، و’شدهَ فمي ، وغارت روحـــي كأنـــها دابقـــة فـــي عـــروق منطقة الأمازون في انتظار زوجـــي .

فجأة ، كطائرة عمودية ترتفع محلقـــة فـــوق الأشـــجار ، وقـــد كشفت مسيرة النهر كما أظهرت شبكة روافـــده ، فجـــأة وكـــأني قــد استرجعت أنفاسي في السماء الفسيحة الواسعة قلـــت فـــي نفســـي إن كل ذلك لسخيف ، وإنه لمن البديهي على أقل تقديـــر ومـــن المحتـم أن أنام الليلة التالية مع زوجي كما كنـــت أفعـــل ذلـــك طـــوال ســـبع سنوات بلا استثناء ، وذهبت إلى الفـــراش لأنـــام .

إلاّ أني نهضت بسرعة ، وأضأت النور مـــن جديـد وقــررت أن أحضر كأس بابونج . شـــربت البــابونج ، وقــد أسـندت فخــذي على حافة المجلى ، وتاه بصــري وأنـــا أنظــر مــن النــافذة إلــى خيالي تعكسه ثقوب المصـــابيح ، بــدا لــي أن قناعـــا" رطبـــا" قــد يساعد في تهدئتي. أيــن زوجــي ؟ فكــرت فــي هــذا النــوع من المزاح الطفولي وهو حيــن يســأل بحــار القبطـــان هــل يمكــن أن نعتبر شيئا" قد ضاع إذا كنا نعرف أيــن يوجــد ، يجيــب القبطـــان : كلا ، طبعا" ، إذن غليونك ليس ضائعا" ، فهو فـــي أعمـــاق البحــر ، أين زوجي في هذا الوقت بالضبط حين كنـــت أبســط علـــى وجــهي معجونا" سميكا" أخضـــرَ ، وقــد رفعــت شــعري بشــدة بواسـطة مشبك؟ كنت أحرص على رسم نتوء وجنتـــيّ ، وكذلــك مــا يحيــط العينين والفم ، وأنا أحاول أن أثبت اهتمـــامي كلـــه ؛ كـــان وجـــهي الأخضر بعينين بيضاوين ضخمتيـــن كوجـــه وحــش مــن كوكــب آخر ، وجه عفريت أعمـــاق البحـــار ، أو وجـــه شــبح مــن طــراز عتيق . ذهبت إلـــى غرفـــة الجلــوس لأســتريح قليـــلا" كـــي ينفــذ المعجون إلى مسام وجهي ، فتحت التلفزيـــون ثانيـــة . كنـــت أريــد أن أعتقد أن زوجي ما زال يشاركني الحيز ذاتــــه ، وأننـــا لا نـــزال سمكتين من البحر نفسه ، وأنه يلزمنا نزهة صيد دقيقـــة نوعـــا" مـــا كي نلتقي من جديد في الشبكة عينـــــها .

غيرت القناة دون أن أنظر ، حاولت أن أشــــعر بوجــوده فـــي مكانٍ ما ، في الشوارع ، في المدينة ، علـــى الكوكــب . كــم كنــت أتمنى ، أن يكون بمقدورنا ، نحن البشــــر ، التواصــل عــن بعــد ، عن طريق المشـــاعر ، أن نحــس بـــالرغم مــن المســافة خلجاتنـــا

المشتركة (أو ما شابه ذلـــك). بذلـت جـهدا" جـهيدا" كـي أركـز تفكيري إلى أقصى حد ، ولكن دمـاغي وقـد أنهكـه الانتظـار راح يتمرد فأصبت بصداع ، أردت أن أوهـم نفسـي أنـي إذا توصلـت إلى موجة الطول المناسبة فسأتمكن من أن أجد زوجـي ثانيـة عـن طريق اهتزاز أسـلاكي اللاقطـة : كـان علـى حياتنـا الزوجيـة الماضية ذاتها أن تتيح لنا أن نتواصل على هـذا الشـكل، وشـعرت بأن عجزي فشل لحياتنا الزوجية، وضعف فـي أخلاقـي .

انبثقت مدوية فكرة كنت أحاول حتـى ذاك الوقـت أن أكتمـها وهي : إذا لم أستطع التواصل مع زوجـي بـالرغم مـن قصـارى انتباهي ، فهذا يعنـي أن زوجـي قـد مـات . تحـت وقـع هـذه الفكرة، في الرابعة صباحا" ، وجدت نفسـي داخـل تاكسـي أطـوف على كل المستشـفيات ، أبحـث حتـى فـي غـرف الجثـث . إن صمت صناديق بطاقاتهم لـم يكـن يثبـت أنـه حـيّ ؛ كـان هـذا السكوت يعني وحده أنهم لم يعثروا علـى جسـده . ولكنـي ، وأنـا في هذا التاكسي والذي لم يكن سائقه يعـرف هـل عليـه أن يشـفق عليّ متعاطفا" معي ، أو يبتسم أو يتجـاهلني ، أيقنـت تمـام اليقيـن أنه بالرغم من إمكانيـاتي الضعيفـة علـى التركـيز ، فـإن مـوت زوجي ، سواء في الحيز الأرضي أو البحـري لـو كـان قـد وقـع لضربني كالصاعقة . و لكان شيء فـي داخلـي قـد توقـف عـن الخفقان، يستحيل غير ذلك . رجعت إلى بيتـي لأنـام .

(٣)

كان تنفس زوجي ، عـــادة ، فـــي الليـــل ، يطـــرد الأصـــوات كافة . كنت أنام وسط تنفسه . لا لأن زوجـــي كـــان يشـــخر. ولكـــن تنفسه كان يتجاوز الشارع ، والمدينة ، فيملأ العـــالم ويسمح لـــي ، بالرغم من الظلام ، أن أجد فيــــه مكانـــا" . كنـــت أستســـلم لإيقـــاع تنفسه كما لو تركت ذاتي مستسلمة بين ذراعيه لو لـــم يكـــن شـــديد التعرق ؛ كانت كمية ضئيلة مـــن الـــهواء تـــأخذ طريقـــها منتظمـــة إلى رئتيَّ ، بعد أن تكون قد سارت فـــي عروقـــه الضخمـــة كافـــة . إني أفترض أن الأشباح التـــي تعيـــش فـــي الليـــل كـــانت تصطـــدم بواقع منكبيه وبصدره ، لأنــــها كـــانت تمـــر بـــالقرب منـــي دون أن تراني ، أو على الأقل ، دون أن تجـــرأ أن تمســـني .

حين تعرفت إلى زوجي ، كـــان قـــد أســـس مكتبـــه العقـــاري الصغير ، كان زوجي موهوبا" فـــي مجـــال الأعمـــال ولقـــد عـــرف كيف يستفيد من توســـع المدينـــة وامتدادهـــا نحـــو الأراضـــي التـــي على الحدود .غالبا" مـــا شـــعرت بملـــل كبـــير وأنـــا أبـــذل جـــهدا" للاستماع إليه (كزوجة مثالية) حيـــن كـــان يعـــود مســـاء" ورأســـه مفعم بالمشاكل ، فبعضها مشـــاكل الزبـــائن ؛ كـــان عليـــه أن يدفـــع ثمن تحفظهم بأبخس الأسعار ، وكذلك البلديـــــة التـــي كـــانت تجمـــد أفضل الأراضي وكان عليـــه أن يقنـــع مســـؤوليها ليقلصـــوا حـــدود تلك الأراضي ؛ ولكن علـــيّ أن أقـــر أنـــي وجدتـــه دائمـــا" صلـــب المراس ، عنيدا" ، صامدا" وشجاعا". كـــانت هـــذه المـــيزات الجليـــة ، بلا شك ، هي التي تبعد الأشـــباح . لأننـــي أمضيـــت هـــذه الليلـــة

الأولى بدونه ، وأنا أضيء النور ثانية ، عاجزة عن التوصل إلى جواب (انعكاس النور والظلال على العوارض ، تيار هواء، طقطقة التلفزيون الذي يبرد ، حفيف الريش في الفراش) عن اقتحام الأصوات . إلآ أني كنت أعرف حق المعرفة أن هذه الأصوات كلها تؤدي دورها . بدأت أعتقد بوجود الأشباح ، والأشباح تتغذى من هذا الشك ؛ ينتصر واقعها ، فيصبح بعد ذلك وجودها بداهة" . إن إضاءة النور ثانية ، لهو اعتراف بوجودها ، وكذلك الحال ، في الظلام ، أن أبقى مفتوحة العينين. حتى حين كنت طفلة ، بالرغم من وجود أمي في الغرفة المجاورة كنت أدخل دائرة الأشباح اللولبية . إن نقطة أن لا رجوع ، التي يهجم فيها الشبح ، لم أصل إليها مطلقا". هناك طرق بسيطة ، وإن كانت شاقة مضنية ، وفي تلك الليلة ، أثناء غياب زوجي ، اضطررت أكثر من أي وقت مضى ، أن أضعها موضع التطبيق : أن تفكير الإنسان عقلانيا" في جنونه الخاص يسمح له أن يقلص الشبح إلى بعد أولي ، ولكن هذا يقتضي حزما" لا يتوفر في ساعة متقدمة في الليل؛ يمكن كذلك أن أحاول القراءة ، متجنبة ما استطعت الجنس الأدبي المتعلق بالخوارق المرعبة ، ولكن الواقعية التي في منتهى السطحية تحدث أحيانا" تأثيرات متناقضة (فبدافع الملل يشتط الخيال)، الأفضل هو اختيار شيء ما تسهل قراءته ، كمجلة أزياء ، أو رسائل قديمة تحرض على التفكير ، وحتى رواية رعب ذات أحداث دامية قد تحررك من خوفك الحقيقي ، نظرا" للمبالغة في الحبكة . وبالمقابل ، فإن الاحتفال بعيد الميلاد ، أي إضاءة النور باندفاع ، من محظوره ، كما ذكرت ، أن يكشف الظلال :

يمكنها حينئذ أن تهاجم بعنـف فتسـرق مفتـاح التيـار الكـهربائي . وبالفعل ، حاولت عبثا" وأنـا أتلمـس الحـائط كلـه (حيـث كنـت أعرف بالبداهة ، كيف أجده) ، فلم أصادف سـوى أسـنان الحـائط الصغيرة الناتئة . أدخلت ذراعـي عـدة مـرات تحـت اللحـاف ، وأخفيت أنفي ، وهكذا استطعت أن أنجو وأنـا علـى قيـد شـعرة ، من مخالب ، ومن أسنان ، ومن مصـاصي دمـاء . لـم يكـن فـي مقدوري كذلك أن أنهض لأصـل إلـى المفصـل الكـهربائي ؛ لأن الظـلال التـي تحـت السـرير قـد سـبقتني فطوقـت ، بمخالبـها المحرقة، قدميك ما إن تطأ الأرض ، بينمـا راحـت ظـلال أخـرى تزيح الجدران عن أماكنها ، فتمتد الغرفـة علـى مـدى خطواتـك ، وسيجدك الناس صباح اليوم التالي وقـد فقـدت عقلـك ، تـهيم مـن غرفة إلى أخرى دون أن تعي أن النهار قد طلع . لـم أجـد أمـامي في نهايـة المطـاف ، إلاّ أن أسـهر ، والنـور مضـاء ، أنتظـر الفجر، ولكن عليّ أن أعترف أن ذلك يعنـي هزيمـة كاملـة ، إنـه النجاة عن طريـق الـذل والمهانـة ، وهـذا يعنـي ، مـن خـلال الأحداث ، أنني لا زلـت طفلـة (كـان زوجـي يطـرد الظـلال لمجرد قناعته بأنه إنسان راشـد) .

إن الفجر وحده قـد اسـتطاع أن يخرجنـي مـن هـذه الليلـة القاسية التي حددت بداية حياتي الجديـدة الغريبـة . طالمـا قـاومت الظلال طوال الليل ، وشعرت باني قد 'خبلت ، حتـى ظننـت أنـي وصلت إلى مكان جديـد وزمـن جديـد أيضـا" حيـث قـد أهـتز وأضطرب حتى نهاية حياتي ، وصلـت إلـى منطقـة لـن تشـرق الشمس فيها بعد الآن وهذه المنطقـة هـي التـي ابتلعـت زوجـي .

إلا أن الشقة أصبحت رمادية اللون رويدا" رويدا" ثـم صـار لونـها خبازيا". أشرقت الشمس خلـف البنايـة ، فـي حين بقـي الظـلام مخيما" على غرفنـا وكـانت السطوح المقابلـة قـد بـدأت تلمـع (القرميد) أو تشهر سكاكين تعمـي الأبصـار (ألـواح الأردواز) ، وكانت الأشعة المنعكسة تنفذ مائلة ،علـى شـكل ضـوء غريـب ، فرعي . نادرا" جدا" ما كنت أرى بزوغ الفجـر. ففـي بـدء حياتنـا الزوجية كنت أبذل جهودا" كبـيرة ، فأنـهض لتنـاول الفطـور مـع زوجي (ريثما أنقع حبوب الذرة لفطوري ، يكون زوجـي قـد ولـىّ الأدبار) . ثم مللت فلم أعد أنـهض بـاكرا" . أمـا أحلامـه ، حيـن كان يبذل جهدا" ليرويـها لـي ، فكـانت ذات رتابـة كئيبـة ، لـم يستطع زوجي مطلقا" أن يتحرر وهـو نـائم ، فكـان يتحـدث مـع زبون ، أو يبيع مرات لا تحصى شـقة تعـود لتمثـل للبيـع فـي درج بطاقاته (كان هذا أقصى نزوة لـه) ، وقـد يحـدث أن يذهـب أحيانا" لشراء الخبز ، فإذا مـا أضـاع مظلتـه ، رحـت أسترسـل في تفسيرات عنيفة وتعليقات ساخرة تجعله غاضبـا" النـهار كلـه .

ولكن هذا الصباح ، صباح حيـاتي الجديـدة ، بمـا أنـه لـم يغمض لي جفن كان الفجر حدثا" جديـدا" بقـدر مـا كـان عـزاء" وارتياحـا" (ولا شـك أن الحدثيـن مرتبطـان معـا") . كـانت الشوارع لا تزال مظلمة ، مبللة ، ضاربـة إلـى الزرقـة . إن هـذه الشوارع التي خلت مـن أيـة نسـمة ، وكذلـك مـن أي حفيـف ، والتي كانت خانقة تحت سماء موصدة ، قد أصبحـت إلـى حـد مـا مريحة للنظر . إن رؤية طيف زوجـي يظـهر باسـتمرار صـارت الآن تفوق طـاقتي ، بـدأت آخـذ رويـدا" رويـدا" إيقـاع انتظـار

أطول، وكأني في نقاهة إلزامية . بـــدأت الســـماء تضــــيء الأرض، برطوبة يتخللـــها بريـــق ســـاخر . كـــان الأفـــق يتشـــقق . وكـــانت العصافير التي لم أرها من قبل ، وهي فـــي الظـــل المعتـــم جـــدا" ، قد راحت تطير مضطربة علـــى شـــكل زوابـــع ، وتصعـــد باندفـــاع واحد دائري المظهر ثم تهوي ، وتحـــاول أن تـــهرب مـــن النـــور . كان الأرق قد شـــحذ حواســـي حتـــى صـــرت أرى النـــور يزحـــف محاذيا" الجدران و ينساب إلى الشـــقة كمـــا تنســـاب طبقـــة مائيـــة . كنت أراه يتقلص على البساط المخملـــي ويضيئـــه مـــن الداخـــل (ثمة رغوات منظفة ذات تأثير ممـــاثل) ، فيصبـــح الغبـــار وكذلـــك الفتات الصغير يشع من نوره . التفـــت' نحـــو المكنســـة الكهربائيـــة، وتساءلت حين يعود زوجي من عمله هذا المســـاء الســـاعة الســـابعة والنصف كعادته هل سينبهني إلى أننـــي لا أهتـــم بشـــؤون المـــنزل ولا أبدي أي نشاط للعناية بالبيت ؟ فـــي هـــذه اللحظـــة (الخاطفـــة) التي عدلت فيها عن استعمال المكنســـة الكهربائيـــة ، انتـــابني طنيـــن شعور بالحريـــة .

أحسست بالجوع . لم أكن قـــد تنـــاولت طعامـــا" منـــذ وجبـــة غدائي يوم أمس . فتحـــت الـــبراد ، كـــان لـــون الألمنيـــوم تحـــت المصباح الخافت بلون الشـــفق تمامـــا" . شـــعرت بالـــهدوء بشـــكل غريب (كانت روحي وقد أعياهـــا التوتـــر والمقاومـــة قـــد أعطـــت نفسها بـــلا شـــك ، بـــالضرورة ، وقتـــا" قصـــيرا" للراحـــة) ممـــا ساعدني على أن أحتمل رؤية قرصيـــن مـــن البنـــدورة وكذلـــك أن أتحمل الندم ، ولقد فكرت أنني لـــو كنـــت زوجـــة صالحـــة لـــنزلت إلى السوق وأحضرت ما أملأ بـــه الـــبراد قبـــل أن يعـــود زوجـــي

منهكا" من عمله ، ولكنت في الاندفـــاع ذاتــه قــد اشــتريت خــبزا" ولما كان زوجي قـــد اختفـــى . أخــذت العصـــافير تغنـــي ، وامتــد الفجر؛ بدأت النافذة الآن تخيفني قليلا"، مكثـــت ليلـــة أمــس طويـــلا" أرقب عبر أزهار البيلسان ، بقيـــت طويـــلا" جـدا" دون أن أبــوح لنفسي بجزعي ، فالقلق الذي تكور أوشـــك أن ينفجـر فـي وجـهي في ضوء الزجاج المتكســر.

حين قررت أن أطلـــب ســيارة أجـرة أخـرى لأذهــب إلــى مكتب زوجي الخالي أفتش فيه ، ورجعت بخفـــي حنيــن كمـا لـم أكن أكثر اطمئنانا" ، أدركـــت أننـــي قـد اســتنفدت آخـر فرصــة عقلانية لأن أجد زوجي بنفســي ، ذهبـت إلـى مخفـر الشــرطة ، وأدليت بشهادة ســتؤدي إلــى فتــح تحقيــق بســيط (بســيط ، لأن مائتي شخص يختفون كل يوم في البلد) وقـــررت أن أعـد القــهوة، على كل حال لن أنـــام .

ذاك اليوم ، حوالي الســـاعة التاســعة صباحـــا" ، فـــي اليــوم التالي لاختفـــاء زوجـــي، جلســت فـــي المقعــد الوثــير ، الحديــث الطراز وكنت قد اشـــتريته بالمراســلة (بـــالرغم مــن معارضــة زوجي ، إنها لقصة طويلة) ، فـــهو مقعــد مريــح ، مــن الجلــد ، وفي منتهى الجمال ، وحاولت والفنجان فـــي يــدي ، وقــد عملــت كل ما استطعت ، أن أتخلص ولو للحظـــة مــن القلــق الــذي قطــع أنفاسي والذي شغل الحيز كله داخلـــي ، وبــدا يتضخــم فــي كــل حركة أقوم بها ، وكأنه سائل تهزه حيويتـــي الخاصـــة . بقيــت مــا استطعت جامدة بلا حراك ، وراح هذا القلق كلـــه يتجمــع ويــتراكم على شكل طبقة ، وددت ألاّ يعود في مقــدوري أن أنقلــب كمـا لــو

لم أكن سوى كتلة أو مجرد وعــاء . ظننــت حينئــذ أنــي ســأغرق في مقعدي الوثير ، وأنا ثقيلة أبقبق ، وقد طفــح فمــي مــن غيــاب زوجي . أين كــان ؟ لــمَ لــم يرجــع إلــى البيــت ؟ إن صيــاغتي للأسئلة تفسح ممــرا" لــنزر ضئيــل مــن الــهواء ، واســتطعت أن أتنفس قليلا" وأنا أطرح هذه الأســئلة التــي تذكرنــي عــن ســبب القلق . كــان القلــق كــالظلال : فــهو يتغــذى بــاحتلالي كليــا" ، فأستسلم بالمقابل ، حينئذ يستمد هذا القلق قوتــه وهــو يتغــذى مــن ذاته بعد أن يكون قد أضناني شيئا" فشــيئا" ، حتــى إنــي لــم أعــد أعرف ، وقد افترسني لمَ أنــا مقطعــة الأوصــال هكــذا وخاويــة . وكان زوجي قد اختفــى تمامــا". وكمــا يصعــب كثــيرا" أن نمــيز نقطة في الغبش ، لأن هذه النقطة وقــد حدقنــا فيــها كثــيرا" تنحــل في شبكية العين وتضيع في الظلام ، لترغمنا بعــد ذلــك علــى أن ننحرف بنظرنا قليلا" كي نستطيع أن نرى مــن جديــد ، فــي دائــرة قزحية عيننا ، وأن نفك هذه النقطة ونتعــرف إليــها ؛ كذلــك كــان عليَ ، كي لا أنسى سبب قلقي ، أن أحــاول أن أزيــح تــأثيره عــن طريق الأسئلة . حينئذ كنت أرى من جديد هــذه الحقيقــة الســاذجة، والتي يمكن التعبير عنها والتي لا جواب عليــها ، وتكــاد أن تكــون عادية وتافهة لأنها تتألف من جملة بســيطة : اختفــى زوجــي . لــم يعد أمس مساء" إلى البيــت . وللحظــة ، اســتطعت أن أفــهم كمــا استطعت أن أدرك وأنا أطرح الكلمات على هذا الشــكل ، مــا كــان يمتص دمائي فيجمدني في مقعدي ؛ كــان بإمكــاني أن أصــف هــذه الحالة وأصنع منها لغزا" . ثم ارتبــك فــهمي وأصبــح كــل شــيء أشد إثارة للقلــق ، جديــدا" كــل الجــدة ، مفككــا" بــلا قــاعدة ولا مضمون ، أي عديم الشــكل .

ذاك اليوم حوالي الساعة التاسعة ، وقد تقطعت أنفاسي وأنا في مقعدي ، نجحت مع ذلك في أن أنهض وآخذ من على المكتب صورة زواجنا . أردت أن أستمد من هذه الصورة، من ابتساماتنا المرغمة قليلا" ، والتي أجبرتها آلة التصوير عليها ، وفي النمط المألوف ليدي تلف مرفقه ، ثمة معنى للواقع ، معنى لهذا الماضي ولحياتنا الزوجية ، قد يطرد القلق الرهيب . ولكن أمام الصورة ، في ذاك الوقت (وفي ذاك الوقت فقط) اضطررت أن أقبل ، بعد ليلة بدون نوم وبلا راحة ، أن زوجي قد اختفى ؛ وأن قلقي مبرر ، بلا حدود وبلا نقاط ارتكاز. تحركت الصورة ، فأصبحت مهتزة غير واضحة . استدار زوجي نحو داخل الصورة ، كما يفعل المرء ، في اللحظة التي ينطلق فيها وميض العدسة ، فيحول انتباهه . ولقد كانت ابتسامتي المرغمة وتعبير وجهي المتصنع على هذا النحو لأمسك به قد جعلاني أتعلق به على هذا الشكل ، لأرغمه على تثبيت ناظره . التقطت العدسة تلك اللحظة ، كما التقطت توتر وجهي وكذلك كم مرفقه وقد تجعد ، ورقبته وقد التوت ، وبدا بياض خفي جدا" انمحت فيه ملامحه . كنت أمسك ، مكان زوجي ، بكم طقمٍ صلبٍ وجديد ، مع شعر مستعارٍ بنيِ اللون. وبدلا" من رعونته ، وحرجه أمام المدعوين ، كان هناك على الصورة حركة ، أو هروب يتدرج في السواد والبني . كانت هذه الصورة جميلة جدا" . كانت صورة اختفائه .

بدا لي ، وأنا واقفة والصورة في يدي ، أني لو وصلت قبل عدة ساعات ، لربما استطعت أن أحتفظ بزوجي ؛ وأن أشد

ذراعه بأقوى مما شددت وأن أقطع عليه مواربتــــه . بــدا لـــي أنـــي لو فكرت من قبل في أن أستشير صورته ، لكـــان قــد بقــي هنـــاك خاشعا" في ذراعي، ولمـــا تحركــت الصــورة . انتــابتني رغبــة جامحة في أن أهتف إلى حمـــاتي ، لأطلــب منــها أن تصــف لـــي الصورة الأخرى المماثلة لصـــورة زواجنـــا التـــي وضعتـــها علـــى تلفازها . ولكني بدأت أفكر كيف أتجنب الألم . حـــدث ذلـــك مســـاء البارحة ، حين تكلمت معـــها هاتفيـــا" ، عـــبر الأقمـــار الصناعيـــة ، في فراغ الليل المطبـــق ، أدركـــت أن كـــانت تنقصنـــي الشـــجاعة لأحتفظ بها هي الأخرى ، لأخبرها ولأبكـــي معـــها ؛ حيـــن انتابـــها حدس باختفائه ، هذا الحدس الخافق وقـــد ســـمعت أجنحتـــه تصفـــق كطائر الحجل المقتـــول.

أخذت دفتر صور زواجنا وغصـــت فيـــه كمـــا أغـــوص فـــي غابة بللتها العاصفة . لم يعد يظهر وجه زوجـــي فـــي أيـــة صـــورة ولكنه كان يتجه إما نحو أعماق الصـــورة أو نحـــو جوانبـــها، كـــانت عيون الناس تحدق فيّ ، والعدسة مثبتة عليّ ؛ كمـــا لـــو كنـــت قـــد فزت في مباراة ، أو بطلة حدث مثـــير فـــي الصحـــف ، أو فتـــاة فاضلة تمسك ذراع مجهول ، أو صبية أكـــبر ســـنا" مـــن المـــألوف تتقدم لمناولتها الأولـــى ، أو نجمـــة تلبـــس البيـــاض وســـط مســـيرة فلكلورية . شعرت إثر تتابع الصفحات بـــأني لـــم أكـــن إلا" زوجـــة زائفة ، وحيدة وحزينة ، ويدي مـــا زالـــت مرفوعـــة نحـــو مرفـــق غائب . رحت أقلب الصفحـــات بســـرعة تـــتزايد ، كنـــت أريـــد أن أستبق اختفـــاء زوجـــي ، والـــورق الحريـــري يتجعـــد بيـــن دفـــتر الصور ، والزوايا التي تثبـــت بـــها الصـــور تتطـــاير ، فـــي حيـــن

أخذت الصور المقلوبة تتساقط الواحدة فوق الأخرى . كنت أمسك في الهواء خيال عابرٍ ، أو قفزة خارج الصفحة ، أو فسحة ، أو حركة أكتاف ، وربما خصلة شعرٍ . كنت أعود إلى الوراء ، وفي همس الورق شعرت بانزلاق ، بشيء ما يتمزق ، بنفحة تحت الشفاه أو تحت الأهداب .

أطبقت يديَّ ، وقد ارتبكتا ، على حقيبتي الصغيرة البيضاء، وكنت وسط الحشد الذي راح يرش عليّ حبات الرز ، كأنني أخاف أن ينتزع أحد ما حقيبة يدي كما لو كانت تحوي اعترافات . إني أعرف حق المعرفة أن نظرتي في هذه الصور لم تتغير ، إنها تلك النظرة إبان الحفلة : نظرة هاربة ، كنا نريد زواجا" بسيطا" بلا حفلة ولكن حماتي حرصت على أن تقدم لنا حفل زواجٍ فخما" (حفلا" في وضح النهار جليا" ظاهرا" كما لو كنت حاملا" في الشهر الثامن) . حاولت أن ألعب دور الزوجة بشكل معقولٍ ، وأن أجد النبرة الملائمة لأقدم أجزاء مسرحية تمثل لم أطلبها ؛ ظهرت ومجرف الحلوى في يدي ، في هذه الصورة البلهاء التي كانت ، في لحظة التقاطها ، قد أزعجتني مسبقا" ، كما إن غياب زوجي عني قد دل عليّ دلالة قاطعة بأني جسم غريب .

انتابني شك رهيب ، وأنا أقلب الصفحات الأخيرة ، حيث لم يعد أحد يرش الرز عليّ، وحيث أصبحت الأنظار غامضة ، وكأن المدعوين يتساءلون ماذا يفعلون هناك ، ألم يكن زوجي حيث وقف ، وفي الوقت الذي حضرت فيه اختفاءه ، قد اعتبر نفسه منذ تلك اللحظة 'مطلقا" لم يتزوج البتة ، حرا" من كل

ارتباط ؟ ألم يكن زوجي يعتبر ، من المكان الـــذي اختبــأ فيـــه ، أن زوجته لم توجد قط ؟ رحت أبكـــي فـــوق دفـــتر الصـــور ، فـــوق دفتر أعشاب لأوقات قـــد ذبلـــت ، راحـــت الدمـــوع تبلـــل الـــورق الحريري الذي كان يلتف كعجيـــن تحـــت أصــــابعي و يزيـــد محـــو لمعان الصور ، كان المطر يهطل علـــــى حفـــل زواجـــي وشـــعرت بالبرد وأنا ألبس طقمي الأبيض القصير، قيـــل لـــي المثـــل الشـــائع : زواج ممطر زواج ســـعيد .

في الحقيقة ليس لدي كثير من الأدلة . لـــم نكـــن نريـــد خواتـــم زواج . كما لم نضع في مخازن الـــــهدايا قائمـــة بمـــا نرغـــب مـــن الهدايا . لم نرد ثوب عرس طويلا" بذنـــب فضفـــاض ، ولا أطفــالا" بأشرطة يتقدمون العروسين . إن الامتياز الوحيد الـــذي فكرنـــا فيـــه للقيام بزواج حقيقي قد خطر لنـــا ذاك النـــهار .

بحثت في الخزانة ووجدت طقـــم زواجـــي الأبيـــض القصـــير في قعرها ، وقد اصفر قليلا"، لم أعد ألبسه كثيرا" ؛ لـــــم يشـــبه قـــط ثوب عروس كما لم يشبه مطلقـــا" طقمـــا" بســـيطا" للنزهـــة ، حتـــى بعد نزع الأشـــــرطة . لبســـته أمـــام مـــرآة غرفـــة النـــوم . امتـــلأ بصدري ووركيَّ أكثر من ذاك الوقـــت . لقـــد فقـــدت قـــوام الشـــابة الممشوق الذي تشهد به الصـــور. إن أطـــول فـــترة حمـــل لـــي قـــد دامت مع ذلك حوالي ستة أشهرٍ . كنـــت أشـــعر بـــالطفل يتحـــرك . ما زلت أشعر به، أحيانا" . بقـــي هـــذا الـــوزن ، كمـــا بقـــي لـــون العروتين ، عروتيَّ ثدييَّ . من قبل ، كانتـــا ورديتـــي اللـــون . أمـــاَ الآن ، فهما بنيتان . إنه الأثـــر الملمـــوس الـــذي يتركـــه الحمـــل ، ولكن قلة من الناس تعرف ذلـــك .

كانت الشمس قـــد أشــرقت منــذ زمـــن ، فأضـــاءت الشــقة إضاءة كبيرة وإن لم ينفذ بعـــد أي شـــعاع مباشـــر إلـــى الداخـــل ، والنور حولي ، بين جدراننـــا العاريـــة (كـــان يريـــد زوجـــي ورق جدران ونباتات ، أما أنا فكنت أريد طـــلاء" وصـــورا" إعلانيـــة: ولقد استحال الوصول إلى أي اتفـــاق بشـــكل موضوعـــي) ، كـــان النور يشع لؤلئيا" فضيا" لا يتغير ، إنه نور وعـــاءٍ زجـــاجي خـــاوٍ . في هذا السكون ، وسط هذا الجمـــود الـــذي راح يثقـــل حتـــى كـــاد ثباته يبعث الاطمئنـــان ، رأيـــت خيـــالا" يتشـــكل رويـــدا" رويـــدا". لامست ورائي سماعة الـــهاتف لأتـــأكد ، عبثـــا"، مـــن أننـــي قـــد أحسنت تعليقها (وبالطريقة ذاتـــها قـــد أحـــرك القـــاطع الكـــهربائي لأتحقق من أن النور قد أطفئ ، وبالتالي يتلاشـــى الظـــل ؛ ولكننـــي كنت متأكدة من أنني قد علّقت سماعة الهاتف ، وكنـــت بعيـــدة عـــن كل القواطع) . بـــدا الظـــل أشـــبه بالخيـــال : اضطـــررت (كمـــا أحاول في الليل أن أستشف ، عـــن ســـهو وعـــن تنـــاقض ، أثـــرا" يعوم في الظلام) أن أركز علـــى اهـــتزاز الضـــوء فـــي دائرتـــه . كانت مواجهة الخيال تخفيه . كانت نوعـــا" مـــن تكثيـــف الفضـــاء ، وربما تبطئ أثر الشمس كما يحـــدث مـــن خـــلال مصفـــاة ؛ فيثقـــل الهواء ، أمام ناظريّ ، ويمكن لمسه . راح يتحـــرك بـــهدوء ، وقـــد استسلم قليلا" إلـــى الـــهواء ، دون أن يغـــير شـــكله ، كـــان مجـــرد هواء أثقل من المألوف . التفت إلى الوراء لأرى إن لـــم يكـــن ذلـــك ظلي ، أو ظل شـــيء مـــا ؛ أبعـــدت يـــدي ، فلـــم يظـــهر أي أثـــر انعكاسي ؛ نفخت ولكنه لم يتحـــرك ، وقفـــت ببـــطء كـــي لا أخـــل بتوازن الغرفة الجديد هذا ، نظـــرت بإمعـــان جـــانب الظـــل تمامـــا" كي لا يغيب عن ناظري ، كان الظـــل واضحـــا" تمـــام الوضـــوح ،

يتموج جليا" في النور؛ أجلت بصري بلطف ، كان على شكل عمود من الهواء في الهواء ، تركز جزء من الهواء في هذا الموضع فأحدث بذلك ثقلا"، وظلا" ، كانت ذرات الآزوت والأكسيجين قد تلاحمت ، تقدمت خطوة واحدة فقط وسطه ، فتجمع حولي وأحسست ضغطا" ، وشعرت بقبضةٍ ، ثم اختفى .

استلقيت على فراشي . وكنت أرى من غرفة نومي النور يزداد بريقه في الغرفة المجاورة ، كانت عيناي ترمشان ، كما لو انفجر شيء ما بسكون ، وبلا أية شظية ، فبقيت هذه الجدران البيضاء ، منتصبة جامدة بلا حراك . دخل شعاع ، إنه أول شعاع لهذا النهار . لقد انساب تحت الزجاج وفجأة ظهر الغبار ، يحدده خطان متوازيان إلاّ أنه راح يتحرك من

تنفسي فقط ، كان هذا الغبار ذا كثافة غير متوقعة في الصباح النقي ؛ بدت المادة ، وقد خمد، كأنها اضمحلت في مكان آخر . رحت أعوم تعبا" ، وشعرت بأنني أعلو قليلا" فوق الأغطية؛ رأيت الغرفة خالية وبيضاء تماما" يخترقها الشعاع فقط ، فتخيلت هكذا قاع البحيرات النووية، حيث اختفت كل حياة، وحيث بدت المياه ، التي هي أثقل من المألوف بسبب صفائها الكبير، وقد رست على طبقة رمال تنضح ، وكأن لا شيء يمكن ، مطلقا" ، أن يحدث بعد الآن ؛ كأن الزمن قد التحم كتلة واحدة ، كنت أسير في قعر البحيرة وأشعر بثقل السكون ، والجمود، والبياض . إن مياه البحيرات النووية في منتهى الجدب حتى إن كل أثر يختفي ، وإن حمض (أ.د.ن.) ،

المشع، يذوب في جسمك إلـــى أن يـتركك خاويـا" حتــى مــن أدق أخاديدك ويمحو منك الأنسال القادمـــــة .

دقّ جرس الهاتف. اقتضى رفع السماعة منــــي جـهدا" يمــاثل الجهد الذي بزلته لأستيقظ، صعدت إلـــى السـطح وجعلـت الـهواء ينساب في حلقي ؛ بدا كل شيء وقد استعاد نوعا مــن شـبه حيـاة ، ظهرت حركة من خلال الشعاع . ثمـــة أحـد مــا يكلمنــي ، كـانت أمي تهتف إلي من مكتبها. بدا لي أنـــه قـد يكفــي للارتبــاط ثانيـة بطبيعية الأشياء ، أن أستعيد معــها لعبتنـــا القديمـــة ؛ فـيرجع كـل شيء إلى مكانه ، وهكذا يستقر المشكال علـــى الصــورة الحسـنة : أنا ، وزوجي ، وحماتي ، وأمـــي .

سألتني أمي بقلق عن صوتي الواهـــن . قلـت لــها : اختفــى زوجي . كأن هذا يعني القيام بتجربـــة كيميائيـــة ، إدخــال عنصــر غريب في جسم ما . بقيت أمي صامتــــة . لــم أعـرف إذا كـانت تبحث عما تقوله لي ، أم إنها كانت تحت وقـــع النبــأ ، شـــأنها شــأن حماتي قبـــل عـدة ســاعات ، فــي تـردد قلـق . راحـت أوراق الأشجار ترتجف على خط الهاتف ، تنفســـت أمــي بقــوة، شـعرت بعرائش تنمو وكذلك بسرخيات وبشـــجيرات تمتـد علــى مسـتويات كثيرة ، كما نمت نخلات رطبة وعريضة تشـــبه مضــايق بحريـــة ، قالت أمي : زوجك ، ولم أعد أسمع ســوى حفيــف غابــة صغـيرة بيننا ، أو حرش صغير ، أو زقزقـــات . بــدا لــي أن صوتـــها قـد رق وتقلص كجسم مادي فراح يصغــر تباعــا" ويــزداد خشــونة ، صار بثرا" ، وصملاخا" متبلورا" من طـــرف الــهاتف الآخـر كأنــه آت من أعمـــاق الأذن . أقفلـت السـماعة . لقـد تطـورت اللعبـة تطورا" كـاملا" .

(٤)

إن الصمت الذي تبع صوت أمي ، وإغلاق سماعة الهاتف، قد أعاداني إلى مركز ألمي ، وأوصلاني مباشرة بالمأخذ الذي يوزع منه قلقي ، ووجدت نفسي هنا ، بلهاء ، أمامي النهار كله أنتظر انتظارا" علمني الليل فيه بأنه نوع من السلبية المخيفة ، قمة السلبية ، وبشكل أدق تعذيب مروع . لم أكن أعرف ، في الدقيقة التالية ، من أين أستمد قوتي لأعيش تلك الدقيقة . بقيت أحدق متفحصة في سواد الجلد البرتقالي اللون التجاعيد التي في غاية الدقة و التي تشكل شبكات كبيرة يعادل حجمها قدرتنا على الألم ، كنت أرى شرارات العين تتراقص وسط الدموع ، وقد راحت تتكاثف ببطء في زوايا التقاء أجفاني فتشكل طبقة شمعية تمنعني من أن أفتح عينيي ثانية ، وأن أخرج من هنا ، وأن أفلت من الضغط الذي لم يعد يحتمل علي جهازي العصبي ، وأن أهرب من انهيار جهازي العصبي القريب الوقوع وقد راح يزداد تفتته في داخلي وبعثرته بشكل ملحوظ ؛ كنت قد استلقيت ممددة على ظهري، فوق أغطية السرير المكورة ، وثناياها في كليتيّ ، وجسمي مشدود كالقوس ؛ كانت قفزات أعصابي توقظني بتقطع ما أن أسترخي قليلا" ، ما أن ’يهدئ جسدي مقاومته وترتخي عضلاتي ويخفف دماغي الحراسة قليلا" ، حتى تثب إلى ظهري طاقتي المتجمعة بأكملها فتقذف بي إلى السقف ، ثمة شيء يريد أن يخرج مني : وحش كله أسنان ، رجل أخطبوط ضخمة

تكورت في أمعائي ، وقد تنبثق بأي شكل ما ، متلويـــة علــى شــكل محجم تلو المحجم فــي ثنايــا أحشــائي ، تلتصــق بــها ، مــهتزة ، تحترق في مبيضي ، وقد استقر منقارها فــي رحمــي وقــد تقطــع في ثمانية اتجاهات باسطا" قطعا" كريهـــة مــن الدمــاء المتجمــدة ، انتابني ألم فظيع في بطني فانطويت علــى ركبتــيَّ ؛ كــان ارتخــاء قصير قد هدأ الأخطبوط في حين لمع ألم فــي ظــهري ، فأحسسـت عمودي الفقري قد انغرس فيَّ كأنه سيف نفــذ بكاملــه فــي لحمــي فأمسك بي كالصنـــارة تحــت رقبتــي ، رأســه حديــدي ، والزنــد المعدني قد تعلق بالرقبة ، كانت عصا صيد كهربائيـــة تســحب مــن عروقــي أســلاكا" شــائكة ، تجعــل الأســنان تصطــك ألمــــا" ؛ فاستيقظت فجأة ، كان الســهر اختيــاري الوحيــد . كــان علــيَّ أن أنهض وأبدو وأنا أتابع التقــدم دون أن أعــير اهتمامــا" إلــى الإبــر التي غرزت في نخاعي الشوكي ولا إلـــى المشــابك التــي أطبقـت مباشرة على نفيريِ مبيضـــيِ ، كــان علــيّ أن أتظــاهر بســماع المذياع أو أن أتنزه من جهة البحـــر .

في دكان بيع الســجائر حيــث لــم أكــن أشــتري منــذ ســبع سنوات بالضبط ، إلا علبا" صغيرة لحبات ســوس ، طلبــت علبتــي سجائر من الدخان الثقيل . كانت الســيارات تلمــع لمعانــا" رماديــا" ، أما ممر المشاة المبسوط كســجادة مخططــة فلقــد مــد شــرائطه المشعة تحت كل خطوة من خطواتي ، كنت أســـير وســط زمــامير السيارات وانفلات غازاتـــها .

إن لقلة النوم نتائج غريبة . لا أدري كيــف وصلــت إلــي شاطئ البحر . أيقظني أزيز الأمواج . كانت علبتـــا ســجائري كمــا

هما بجانبي ، وقد غطاهما الهواء رويـــدا" رويدا" بطبقة ناعمة من الرمل ، كانت تنزلق فـــوق الـــورق الشفاف كما لو كانت ترفعها حركات جلد خفية . راحت حبات الرمل تدور بعضها على بعض ، تحت ناظريّ تماما" ، صفــراء شاحبة فوق زرقة أحرف علبتي السجائر الفاقعة ، كما لو كانت أقزاما" قلبتهم قوة يجهلونها ، وقد تكوروا مذهولين ، قريبين كل القرب وضخاما"، تحت المجهر في مدينة عمت فيها الفوضى . كان وجهي مخبأ"، وأنفي أمام البحر ، أستنشق الرذاذ ، بدأت أتغطى تدريجيا" ، وأنا كذلك ، راحت رموشي ترف من هجمات حبات الرمل ، كان الهواء يحملها معه ثم يعيدها وخزا" على وجنتيَّ ، وهبات تلفني شيئا" فشيئا" ؛ كان سيلان طويل وشاحب يسري في ثنية كليتيَّ ، كما كانت كثبان صغيرة جدا" من الرمل تملأ تجويف ركبتيَّ وتشد فخذيَّ وساقيَّ ؛ وكانت أجفاني، رغما" عني ، تبطئ متثاقلة من الرمل وقد التصقت التصاق غبار الطلع بالغمديات. انتفضت.

لطمني البحر وسط رأسي ، على شكل لفافة ضخمة تقصف رذاذا" على بعد أقل من متر عني، تهز خلاياي العصبية بهواء عنيف . ثمة قلق آخر ممكن ، كنت أشعر به قد بدأ يصعد، ليجعلني في منتهى الوعي ، هنا ، يقظة ، منفتحة تماما"، إنه شكل آخر لقلق يتربص بي أتى ينتصب أمامي ، بلا مفر ولا مخرج ، ينظر إلي نظرة مباشرة ، صريحة . جلست أركز فكري وقد ثبت ردفي في الرمل ، وامتلأ حذائي ، كما كنت أفعل وأنا طفلة ، أفكر في الألم الطفيف الذي يسببه الرمل وقد

تجمع بين أصابع الأقدام ، فصقل أظـافرك بصمـت ، مـن الأعلـى ومن الأسفل ، وهو يدخل ذرات صغـيرة قاسـية جـدا" فـي بـاطن قدمك . بسطت يدي نحو علبة السـجائر ، نزعـت عنـها غلافـها ، عادت هذه الحركة من تلقاء ذاتها ، كانت القداحـة هنـا بيـن ثنيتـي بنطالي الجينز ، في مكانها المـألوف ، كمـا لـو أنـها لـم تتركـه البتة، تكورت يدي على شـكل دائـرة لتوقـف الـهواء ، وانحنـى رأسي جانبيا" ليبعـد شـعري ، ودولاب القداحـة يحتـك بـالحجر ، واللهب الذي لم ُيحمَ بشكل كافٍ ينطفـئ (هـذه اللحظـات التـي لا تحصى من حياتي قبـل الـزواج ، يحـاول العـابر أو الشـخص الجالس علـى الطاولـة المجـاورة ، أن يسـاعدك ، كلمـة الشـكر المعلوكـة بيـن الشـفتين ومرشـح السـيجارة ، أحيانـا" تتلامـس الأيـدي) . كنـت أجلـس القرفصـاء ، وكـاد وجـهي أن يلامـس الأرض ، وشعري يطقطق برائحة احتراق فـي بعـض مواضعـه ، كي أسحب بين يـديَ المضمومتيـن أول نفحـة ، مكثـت هكـذا ، وقد توقف تنفسي ، ثمة صـبر غريـب كـان ُيبـث وفـق إيقـاع دمائي ، كما عمّت ثقة أليمة ، فيزيولوجية بحتـة ، فـي أطرافـي . امتلأت رئتي ، وامتد جوفي ، فنفخت ببطء ، مـن كـل عضلاتـي، من كتفيَ ، من رقبتي ، كنت أحاول أن أحـرر صـدري ، فرحـت أنفث متمهلة الدخـان الأزرق ، المنقـى كـأن مصـاص دمـاء قـد صفاه ، كان الدخان الأزرق رشيقا" يتراقص فـي الـهواء البحـري، إنه دخان سيجارتي الأزرق الشـاحب .

أخذت لفافات المياه تنبسـط ، فخفـت حـدة ضرباتـها علـى الساحل الرملي الذي كان يحتفظ بالماء مـدة أطـول ، كمـا يحتفـظ

بالريح ، فتتشكل بالتالي فقاعات ضخمة وتلال مشبعة بالماء ، قد تبتلع نعليّ وهي ترسل ضجيج محجمة إذا ما غامرت وتقدمت قليلا" . ألقيت نظرة حولي ، كنت أشعر بدوار خفيف ، وكانت أطراف أصابعي المملوءة بذرات الرمل قد تخدرت من النيكوتين ، بدت بشرتي قد ثخنت فقلت حساسيتها بالريح وببرودة الرذاذ اللآسعة . كان الشاطئ خاليا" ، لا أحد يأتي هنا مطلقا" ، نسي السكان أن العاصمة بحرية تصلح للاستحمام. كان الدخان تحت شفتيّ ، وعلى لساني ، و في حلقي وداخل تجاويف أسناني ، كنت منكمشة على نفسي ، والسماء تتتابع في حدقتيّ كمجموعة طائرات ورقية تتقدم متمزقة في كتلة الغيوم الضخمة.

إن مدى الأمواج يشكل مكانا" يمكن أن ’تعطى فيه صورة عن الغياب ، إنه مكان يريح إلى حد ما لأنه واسع وخالٍ . إن زمن البقاء هنا للنظر إلى الأمواج والسماء فوقها ، يعطي شعورا" بالامتداد حتى الأفق مع امتداد البحر ، و في هذا الزمن قد يشكل الغياب والديمومة مجتمعين أشياء ذات وجود . كنت أعلم حق العلم أني ما إن أدخل إلى البيت ، حتى يثب قلبي وثبات نمر في اللحظة التي أضع فيها المفتاح في الباب ، بدأت أحس في جسدي استعدادا" للعودة ، لأرى إن كان يكفي دورة مفتاح (هذا يعني أن زوجي هناك) أو دورتا مفتاح كاملتان تطقطقان ، ما الرسائل على شريط مسجلة آلة الهاتف ، من زوجي ، من الشرطة ، من حماتي ، من مشرحة الجثث ؛ شعرت داخل جسمي بضرورة ملحة في أن أترك الشاطئ حيث

قدرت ، أمام فساحة البحر التي لاتـدرك ، أبعـاد اختفـاء زوجـي ، كما قدرت الصبر الذي يسـتحيل والـذي علـيّ أن أظـهره ، حتـى الأفق حيث لا يزال البحر ينبسط وراءه ، والصـبر الـذي علـي أن آخذ عظمة حجمه لأحوي في داخلـي مـد البحـر وجـزره طـوال فصول غيابه . انتابني الغثيان وأنا أدخن مـلء رئتـيّ فـي الـهواء المشبع باليود أمـام الأمـواج ، حتـى إن أصـابعي احـترقت مـن مرشحة السيجارة وقد اشتدت حرارتها الآن ، كـان ثمـة شـيء مـا يقرقر في أعماق بلعومي وكان هذا المذاق القذر قد نتـج عـن كـل هذه الدموع المكبوتة ، دوار بحر ذو طحالب طويلـة لزجـة شـكّلها الطمي والملح ، وكان عليّ أن أنزعها ، خيطا ، خيطـا" مـن بحـر (سارغاس) الذي أضحى مشـهدي.

كنت أمشي بمحاذاة الأمـواج ، وقـد ابتعـدت كثـيرا" عـن محطة المترو ، وصلت إلـى.منطقـة الأبـراج المصفحـة ، حيـث ظهرت الخطوط الأولى للمنـاجم التـي تجعـل الحـدود تمتـد فـي البحر . كانت مراكب حديدية تدخل وتخرج من القنـاة ، كـان هـذا يشكل حركة مستمرة ، هل كان زوجي ، مـن الجـزر ، يفكـر فـي الهرب إلى أبعد من ذلك ، هـل كـان يسـعى نحـو بـلاد أخـرى؟ رست الأسبوع الفائت ببسـاطة سـمكة قـرش تـزن طنيـن ، راح رجال الإطفاء يرشونها بالماء طوال النهار ليوحـوا إليـها أنـها فـي البحر ، إلى أن لفظت روحها البائسـة فـي تثـاؤب أخـير كريـه الرائحة . هل كان زوجي فـي هـذا الوقـت يحتسـي المشـروبات التي تساعد علـى الـهضم ؟ كـادت الفكـرة فـي حـد ذاتـها أن تضحكني . كان البحر وقد فتح فاه يرتمـي علـى الرمـال ، فيقتلـع

الشاطئ بضربات أسنانه ليبصقه ثانية على بعد عشرة أمتار ، على شكل فتائل غريبة . وصلت على مرأى من أسود البحر ، كنت أسير بسرعة متزايدة ، وأنا أتعثر بكعبيّ حذائي في الرمل الرخو ، فيغرزان دون أية مقاومة ، وبشكل مزعج ، كأنهما بلا شك ، قد دفعت بهما ضربة قدم ، مثل بطن أسود البحر الضخمة كلها ، التي تأتي المدينة بأجمعها لتطعمها بطريقة فلكلورية كما لم يعد لهذه الأسود إلاّ فسحة ضيقة بين أحواض الملح لأن السكان في تزايد مستمر وفي انتكاس متفاقم ، كنت أسير مسرعة وقد اجتاحتني رغبة في الصراخ عاليا" في الهواء؛ كنت أكره زوجي ، وأتقيؤه بكامله ، أينما كان ، ومع من كان ، فليذهب اللعين إلى الجحيم ، إلى أحشاء أول سمكة قرش تقرقر جوعا" ، إلى فراغ البحر بكامله المليء بأسماك نتنة كريهة وبأخطبوطيات أشد نتانة . سقطت جالسة ، فاجتياز كل أسود البحر هذه يقتضي سيرا"، كما في متاهة ، بين بطونها الضخمة وأنفاسها المقززة . أخرجت سيجارة ، كان حاجز من الأجسام يحجب الرؤية ، وقد لطخ باللون الأسود ، والأحمر ، والرملي ، كانت هذه الأجسام على شكل لبن رخوة تكدست فيها الظهور والبطون كما تجمعت قطع من فراء ، ونتف من شوارب ، وصدور عالية ، عدوانية ، في حين كان صدر آخر يتحرك ليتقدم بضعة أمتار مربعة على الرمل ، و كأن رأسه قد تسطح بمطرقة ، وتساقطت تثاؤباته وهو يطقطق فكه مما جعل لثته وأسنانه يلتقيان على شكل لولبي في معمل آلي صنع من اللحم الضخم . كان الذكر المسيطر لا يكف عن النظر إلي بطرف عينه نظرة اشمئزاز ، قدرت وزن الحيوان، لا أقل من ثلاثة

أطنان ، أما جلده فلقد تصلب من سنوات مـــن الملـــح تجمـــع علـــى شكل قشر ، لم يكن ليحاول القيام بـــأدنى حركـــة ، ولا بـــأقل جـــهد من كتلته الممتـــدة ، اســـتجمعت قـــواي وألقيـــت حصـــاة أصـــابت بالضبط ما بين عينيه ففتحـــهما الأبلـــه قليـــلا" ، ســـار الخـــبر مـــن خلال شبكة أعصابه المغلفـــة بالشـــحم ، كمـــا اســـتطاعت خليتـــان عصبيتان أن تنفصلا عـــن شـــحمهما لتباشـــرا تدحرجـــهما الكـــروي ورأيت الكتلة الضخمة بـــلا رأس ولا ذنـــب البتـــة تتحـــرك كـــدودة نحوي ، تتقدم الجدعتان أولا" ، تليهما ضربـــات فـــي المؤخـــرة ثـــم موجة تسري تحت الجلد ، قطع مترا" ثـــم ســـقط الجســـم . ضحكـــت ساخرة ووقفت ، بكثير مـــن الزهـــو والخيـــلاء ، وابتعـــدت بقدمـــيَ مقوّسة دون أن أشعر بضرورة الهرولة ، فخـــورة كعـــروس البحـــر الصغيرة وقد شقت إلى قسمين بســـاقيها الجديدتيـــن ، كمـــا 'قصـــت مثلها ألمـــا".

إن إيقاع السير أو السيجارة قد أدى إلى إخماد شـــيء مـــا فـــي داخلي (رد فعل كيميائي ، انشـــطار حـــراري نـــووي كـــان 'يقلـــع في نواة خلاياي) ، وملأني القلق من جديـــد ، هادئـــا" رصينـــا" إن صح التعبير ، وبلا منازع : إن توتر الأعصـــاب لـــم يكـــن شـــاملا" بنوع كامل ليشغل جسمي طويلا" . كـــانت صـــورة زوجـــي تتجمـــع ثانية في داخلي ؛ لم تكن وحدها بل كان معـــها الكتلـــة ، والحجـــم ، كان منطاد في بلعومي كـــي يرفـــع عنقـــي اختناقـــا" ولكـــن دون أن يعلو بي عن الأرض ، كنت متوترة منهكـــة ، كـــأني قـــد 'شـــطرت شـــطرين ، قدمـــي فـــي الرمـــل أمـــا رأســـي فمثـــل منطـــاد مـــن الهيدروجين .

أشعلت سيجارة أخرى . كان الضباب يزيد مع البرودة . برد الهواء أسرع مما برد البحر ، الذي كان يدخن بخارا" أبيض ضخما" يتكاثف مطرا" ناعما" يسقط على وجنتي . كانت كل موجة تتقوس ، لحظة انكسارها ، تطرد كما لو كانت بين شاربي الحوت نفحة اختلط فيها الرذاذ بالضباب . أخذت أسود البحر تختفي رويدا" رويدا" . كنت ألمح ظهرا" ابتلعته الموجة، أو منتصف صدر اختفى على شكل مثقب قبل أن يغطس تحت ما بقي من الجسم الذي ستلتهمه المدحاة السوداء في أمواجها . كانت شبكة الزبد المتحرك التي رفعتها الأمواج قد أخذت تتفكك إثر كل لفة منها ، كانت كل نقطة التقاء في الشبكة تزداد دقة وانتشارا" وسط نقاط صغيرة أخرى قد تناثرت . هكذا كنت أتخيل دماغي ، خاضعا" للضغط ومنثورا" ، وكل ترابط فيه قد انقطع شيئا" فشيئا" ، فأصبح التواصل ضبابيا" ومهتزا" (ثمة زردة قد نسلت ، وشاح من غبار لم يعد يحتفظ حتى ببذرات تبعثره الخاصة) ، وكان فكري يتبخر هو الآخر محاولا" أن ينتشر وفق ما كان ينقصه ، مطابقا" جسم زوجي المفرغ ، والخاوي والمبخر. مكثت أمام الأمواج ، راح الضباب يتقدم نحوي كما ترتد الأمواج متدحرجة من أعلى البحر ، فامتلأت عيناي بالبياض ، وصار الرمل وحدة متماسكة لزجة ، واضمحلت حباته ؛ ثم انحسر الضباب مع المياه ، وظهر الشاطئ ثانية ، استطعت أن ألمح بعض مزق من المدينة ، لافتات أبراج عالية تومض عن بعد ؛ وتقدم الضباب من جديد ، وهو لا يزال شديد الالتصاق بالمياه حتى ليتعذر عليه الانفصال عنه والانتشار بحرية ، كان الضباب يتقدم ويتراجع وفق إيقاع ارتداد الأمواج تماما" ، فيسبق حركة أجفاني .

خلعت حذائي وسرت بمحاذاة البحـــر . كـــان الرمـــل ينســاب شرائط ناعمة من الزجاج بيـــن أصـــابع قدمـــي ، هـــذا البحـــر بـــلا ربيع ولا خريف ، إنه يقتصر علـــى شـــتاء وصيـــف يتتابعـــان دون إخطار ، حسب الاعتدالين الكبيرين للصيـــف وللشـــتاء وفـــق ميـــل الكرة الأرضية من جهة أم من الجهـــة الأخـــرى . كـــانت قدمـــاي تغرزان ، وكل موجـــة تريـــد قتلـــي ، تريـــد أن تطرحنـــي تحتـــها وتجرني ضاربة رأسي ، وإثر كـــل إخفـــاق جديـــد كـــانت الموجـــة تشتاط غيظا" فتـــترك بعـــض الرمـــل علـــى كـــاحلي كـــي تحســن الإمساك بي حين تعـــود .

ثمة شيء ناعم جدا" أتى يصطدم بساقي ونفـــخ البحـــر نفســـه، الأبيض ، في عيني . انحنيت إلى الأمام وأنا أحـــاول الحفـــاظ علـــى توازني ، كانت ذروة الأمواج التي على شـــكل لفـــائف تصـــل إلـــى ركبتي . بسطت ذراعي . كان هذا الشيء قـــد تـــرك ذنبـــا" طويـــلا" في الرمل ، كأنه خط حديدي ، فكرت في جســـم زوجـــي (تصلـــب صدري من إثر تدفق وعي أشد احمرارا" فـــي شـــراييني) ، ولكـــن هذا الشيء قد عاد ، رأيته ينحدر مـــن أعـــالي لفـــة الموجـــة ،علـــى شكل كتلة صغيرة ضاربة إلى البيـــاض ، منتفخـــة ومتفككـــة ، إنـــه جسم أعادته المياه إلا أن الضبـــاب محـــاه ، نظـــرت إليـــه يتلاطـــم نحوي وينزلق بمحـــاذاة الرمـــال ، متمـــهلا" تدفعـــه الآن الموجـــة . كانت فوهة ضخمة حمراء تفتحه من وسطه . كأنـــــه طفـــل ’بقـــرت بطنه ، ولكنه كان أســـد بحـــر صغـــيرا" ، قطعـــت شـــظايا الألغـــام جسمه نصفيـــن .

فركت فيما بعد ، بالرمل والماء ، الموضـــع حيـــث مـــس هـــذا الجسم ساقي ، تقدمت بأسرع مـــا أمكـــن ، دون أن أنظـــر حولـــي ،

في الضباب الذي صار ذا شكل واحد . بدت فوهـــة المـــترو وســط هالة ، وانبسطت أذرعـــه الخضــراء نحــو الســماء . كــان شــاب زنجي يشوي تحت سقيفة نقـــانق صغـــيرة ، كـــانت الرائحـــة فـــي منتهى الغرابة وقد اختلطت برائحة اليـــود المدوخـــة ، شـــعرت بـــأن هذه الرائحة حسية جدا" ومألوفة يوميـــا" ، حتـــى أنـــي فتشـــت فـــي جيبي لأجد قطعة نقود . قلت : لم يبدأ الموســـم بعـــد . كـــان تلـــون وجهه المائل إلى الزرقة قـــد أبرزتـــه انعكاســـات الضبـــاب ، إنـــي أعرف أن الزنوج ، تحت مناخ بلادنـــا ، تنقصـــهم الأشـــعة فـــوق البنفسجية اللازمة للحفـــاظ علـــى صبغياتـــهم ، وأحيانـــا" يموتـــون ، وقد شحبت أجسادهم تماما"، من سرطان الجلد . لـــم يكـــن الزنجـــي ينظر إلي ، بل إلى البحر ، كان الزبد الأبيض يلقـــي بريقـــا" وســط القطن المحيط به ، وراحت شرارات مضيئـــة تنبعـــث فجـــأة خـــارج الأمواج ، كانت أجســـام صغـــيرة جـــدا" تحـــاول أن تولـــد تحـــت أبعادنا الثلاثة ، وهي تســـعى أن تنجـــو مـــن تفتيـــت الفضـــاء لـــها ولكنها لا تتوصل إلا أن تذوب على شـــكل بريـــق خـــاطف ، يـــدور متلاشيا" تحت حطام الأمواج . تجمد صدري إثر شـــيء مـــا منـــهك قد امتصني كمـــا يفعـــل مصـــاصو الدمـــاء . ولكـــن التنقـــل إلـــى الجزر ، سمعت ذاتي أردد كما تدفع عوامـــة (كـــان صوتـــي يـــرن في فوهة المترو) التنقل إلى الجزر يأتيك ببعض النـــاس ؟ لـــم يبـــد الزنجي أي التفات. تركت ذاتي يحملنـــي الـــدرج الآلـــي الـــذي راح يغوص تحت التل بلا انقطـــاع ، ألقيـــت شـــطيرة النقـــانق فـــي أول صندوق قمامة . استردني لـــهاث المدينـــة القـــوي بقرقرتـــه ، إنـــها أمعاء عجل البحر ، عجل البحر الضخـــم الـــذي اتخذتـــه مســـكنا" . ألقيت نظرة إلى الوراء لأرى آخر موجة ، لأرى آخـــر جســـم مـــن الزبد الصغير والبـــائس .

(٥)

كان في زيارة جاكلين ــ وأنا غائصــــة فــي أريكتــي أســائل نفسي ، ثانية إثر ثانيـــة : كيــف يمكننـــي أن أصمــد أمــام فــراغ السهرة ــ كان في زيارتها شيء غير واقعـــي . كــانت أمــي قــد اتصلت بها هاتفيــا" (بــدأت شـبكة تواطــؤ النســاء حولــي تلقــي حبالها، ليحتجزنني بينهن ، ليساعدنني كمــا تدفــع أســماك القــرش القوية بحدبة خطمها الأسـماك الضعيفـة التـي قـد تـترك نفسـها تنزلق إلى دوائر الأعماق فتجعلها تعوم) ، كانت أمـي قـد نادتـها، قلقة ، لتخبرها أني في وضع سيئ ، أرسلت أمــي أفضــل صديقــة لي . سألتني جاكلين : ما هــذه الحكايــة ؟ هــل اختفــى زوجــك ؟ كانت تلقي حولها نظرة متفحصة . بدا لي أن الفــراغ والقلــق كانــا يرشحان من أدق رواسب طلاء الغرفة ، ومع ذلــك كــانت جــاكلين تتأمل جدراني برباطة جأش ، وقد وضعت يديــها علــى وركيــها ، لم يكن زوجــك يومــا" واضحــا ، ورأيــت مذهولــة ، بنظرتــها الصريحة والصادقة ، زوجي فــي صــورة زواجنــا ، يعيــد إليــها نظرة تعادل نظرتها صدقــا" وصراحــة ، زوجــي الخبيــث يقــف شامخا" يتأبط ذراعي بلا مواربــة . أشــرت بــإصبعي إلــى إطــار الصورة ، أمسكت جاكلين الإطار ، بســبابة لا تخــاف مــن شــيء وراحت تطبطب على الزجــاج وتنظــر إلــي مباشــرة ، زوجــك ، آراؤه ، هذه الحياة ، هذا الزواج ، وبــلا أولاد ، غشــي بصــري ، وبدت شفتا جاكلين تسبحان حــول الكلمــات مثــل ثــوب لا يسـتوي وشكل صاحبه ، ولكنها كانت تبدو على يقيــن يجعلنــي أشــك علــى

الدوام. تابعت جاكلين قولها: إنه من المحتمل جـــدا" وقفــت صديقتـــي منتصبة حازمة أمامي ، وقد وضعت مخطط حملة متناهية الدقة تقاس بالمليمتر ، وبسطت خطة حربية جديرة بأن تبث في برنامج في الفضاء ، كي تؤمن أحدا" يهتم بأطفالها حين خروجهم من دار الحضانـــة كمـــا أبلغت زوجها بأن يضع في الفرن طبق المعكرونة ، كي تســـتطيع أن تتدخل في حيزِي بمجرد أن تخرج مـــن مكـــان عملـــها ، لـــم يكـــن باستطاعتي إلا أن أكون معجبة بها شاكرة) ، إنه لمن المحتمل جدا" أن يكون زوجك قد خطفته الشرطة ، أو المافيا ، أو مجموعة قوى أجنبية، فبرنامج عمله ، ومستوى معيشتكما ، وصفقاته في الأبنيـــة ، ومنطقـــة الحدود تبقى مجازفة خطرة . حاولت أن أقول إن الأمر ليس كذلـــك ، كنت أقاوم هجوم الأجسام الغريبة التي تثقبها جاكلين دائما" فيَّ كأنـــها ضربات مثقب كهربائي ، استندت بكل قواي على نخاعي الشوكي الذي نفذ إليه اليود حديثا" وبقوة، كان عليَّ أن أحدثها عن الصـــور، وعـــن عمود الهواء ، وعن الظلال في الليل ، وعن أجســـام الزبـــد ، وعـــن الضباب فوق البحر، وعن الزنجي وعن أسود البحر (كان علـــيَّ ، قبل سنوات ، أن أسمعها الصوت الذي ترجعه فضـــاءات أخـــرى) ، ولكن لو فعلت ذلك لاعتبرتني مجنونة ولأيقنت أنه من الحكمة ، وخير لي ، أن تدخلني فورا" مصحا" للأمراض العقلية مع موافقة أمي التامـــة والمحبة . ولكن حدث أثناء ذلك شيء ما ولم يعد أمامي إلاَّ أن أصمـــت وأراقب .

كانت جاكلين ، وقد وقفت أمامي ، تتابع حديثـــها ، وبـــدا لـــي أني أراها تصغر، برأسها وبأعضائها ، كأنها بيد محنـــط مـــن قبيلـــة جيفارو[1] فترتسم صغيرة جدا" في قعر الغرفة فـــي حيـــن

---

[1] وهي قبيلة هندية في منطقة الأمازون وقد اشتهر محنطوها بتصغير الرؤوس

كانت على بعد متر عني وكنت أشعر على وجهي بقوة هواء حركاتها وهي تعظ وتخطب ؛ كان صوتها ينشطر، رنانا" مفعما" بالصدى ، وكان صوت آخر في داخلها يجيب على الصوت الأول وفق خيط متناغم مستمر. مكثت مغتبطة أمام هذه الظاهرة المدهشة ، وكما الحال لدى الكلاب ، التي يقال عنها إنها ، حين يتكلمٍ صاحبها كلاما" كله حزم وتأكيد ، لا تسمع ، ولعابها يسيل ، إلاّ تكرار اسمها الذي يدق كالمطرقة ، لغوا" ثم ريكس (اسم الكلب) ، لغوا" ثم ريكس ، جلست على قفاي ، فاغرة الفم وشعري مصقول ، وقد شعرت بذنب يكاد أن يكون ملموسا" يضرب ظهري وفق إيقاع تحدده كلمات جاكلين ، لم أعد ألتقط إلاّ الكلمة التي تتكرر ، زوجك ، يليها لغو ثم زوجك . وكان زوجي ينشطر بدوره في صوت جاكلين المنشطر ، وقد تحول ، من جهة ، إلى وظيفة فارغة، ومن جهة أخرى إلى الصورة الواقعية التي كنت أحتفظ بها ، أنا ، عنه ، ولكن على شكل ذكرى ، وبتعبير أدق صورة يستحيل إظهارها .

ليس الأمر على هذا الشكل ، استطعت أخيرا" أن أنبح ، ولكن جاكلين كانت ، كما يقال ، قد ذهبت بعيدا" ، وليس بإمكان أي شيء أن يوقف هربها إلى أبعد طرف في الشقة ، كانت الجدران تبتعد عن طريقها ، فيتسع المنظور ، ويتقلص ملاط الجدران ؛ وبما أن صوتها كان يضيع ، فإن جسمها راح ينشطر حينذاك ، كان نوعا" من جسم معاكس انفصل عنها كقشرة رقيقة غشتها من الأمام قليلا" ، فسبقت حركات يديها البلاغية ، وأخذت بهدوء

استقلالا" مسليا" ، وراحت تبطل بالتواءات ساخرة ما كانت تشرح لي جاكلين بجهد كبير . إلا أن تعابيري كانت توحي فعلا" بدهشة كلب صغير ، لأن صديقتي ، توقفت ، شاردة ، فترة . ترددت القشرة المضيئة ثانية من الزمن ، ورقصت برجل واحدة فوق الأخرى ، ثم أرسلت صوبي ما يشابه نظرة ، ورفعت ما يماثل الكتفين وسقطت كما تسدل الستارة . ولكن سنح لي الوقت ، بالتزامي بالصمت (لأن جاكلين قد لمحت نظرتي التي ربما خفت عدوانيتها فراحت تعيد طريقتها في المواساة) ، أن أعاين حدثا" . فكلمة < زوجك > التي كانت تكررها باستمرار لتدعم خطابها (وكنت أصغي إليها مشدوهة ، ولعابي يسيل متزايدا"، أنتظر أي شيء ، قطعة من السكر ، نزهة ، مداعبة من راحة اليد) ، فبتكرارها كلمة < زوجك > التي كانت تقرع في فمها كمثال نحوي قد حاولت ، بمجمل القول، أن تضع نفسها مكاني ؛ كنت أراها متوترة من الجهد الذي بذلته لتواسيني ، ولتساعدني في ظرف كهذا ، لتحبني قدر المستطاع ؛ أحسستها قلقة ، معنية ، صادقة بإخلاص يفوق تصوري ؛ ولكن وجهها قد تشنج بشكل غريب ، كما صرفت بلا شك من الحريرات أكثر مما يقتضيه تمرين ما من الطاقة والنشاط ، وبمختصر القول ، كانت واحدة من الوجوه التي تفرضها الصداقة ، بل وأبسطها : تساندني في الشدة والألم (هذا ما يفعله سمك القرش ، بحدبة خطمه ، بحركة من الأسفل إلى الأعلى) . إثر هذين المقطعين ، زو جك ، وقد أخذ رنينهما الصوتي يزداد قرعا" في أذني (أحرف مقفلة تلفظ من الأسنان وأخرى من الشفاه ، عادت معلوماتي اللغوية ، خلال

الأربع والعشرين ساعة الأخيرة بسرعة توازي تقهقر دراستي التي تحولت إلى درجة وميض خافت يصعب تصنيفه في عالمي) ، تحت هذه الأحرف المكررة والملفوظة بأفضل شكل ، كانت جاكلين ترفض رفضا" تاما" الفرضية ، الشاقة على النفس، ألا وهي الاختفاء الكامل ؛ كانت جاكلين تدفع بزوجي إلى مسافة تفوق رعبا" بكثير المسافة الفعلية حيث يحتمل أن يكون مقيما" ، فإذا ما اجتاحته رغبة ، مقبولة إجمالا" ، في أن يقتصر من الآن فصاعدا" على هذا النوع من الوجود ، متأرجحا" في الفضاء ، متكورا" في ذاكرتي ، غامزا" في الصور ، هامسا" تحت الأمواج ، لا أدري ... كان شيء ما يطفو بيني وبين جاكلين ، شيء ما يتلعثم تحت كلماتها وكأنه حضور من هذا النوع بالضبط ، ولم أستطع أن أشرح لصديقتي ، في هذه اللحظة ، أني أفضل أن تسكت ، لتفسح مكانا" صغيرا" جدا" لاحتمال مفاجئ إلى حد ما طبعا" ولكنه ما زال مقبولا" ، لزوجي التائه .

توقفت جاكلين من تلقاء ذاتها ، متضايقة ، وما كان يهتز حولها قد توقف لحظة مذهولا"، كأن اهتزازات صوتها قد أفسحت أخيرا" ، في الهواء ، مكانا" حيث أصبح الفراغ قابلا" للسكن . أرغمت نفسي على أن أبتسم ابتسامة حاولت أن تكون محبة ، لطيفة ، ومقنعة إلى أقصى ما يمكن ، ولكنها كانت أشبه، بالنسبة إلى جسمي الرافض ، بمظاهرة فيزيولوجية تعادل غرابتها تأنق قط (شيشير) حين لم تر أليس ، في أغصان الأشجار ، إلا مجموعة أسنانه ، وبداية شاربه، ولا شيء حول ذلك . شحب وجه جاكلين وظننت أنها ستعود ثانية إلى الدلائل

والاستنتاجات، (كـانت دائمـا" مشـغولة ، بأعمـال كثـيرة ، ونادرا"ما ترى زوجها وأولادها) ، ولم تكـن تـهدف فـي برهنتـها إلاً أن تطلب مني أن أعي خطورة اللحظة : ربما لـم يكـن زوجـي جاسوسا" فقط (ثائرا"، خائنا"، شهيدا" ، قـاتلا" ، بطـلا" ، مريضـا" نفسيا" ، قديس المستقبل شـفيع العـاملين فـي العقـارات) والأسـوأ من ذلك ، لو كان قد اختفى ، فليس لـدي أي مـبرر لأعتقـد أنـهم سيعيدونه لي حيا" ، ولكن قد 'قطع قطعا" صغيرة نتنـة ترسـل لـي في طرود بريدية قليلة التكلفة (بما أن هذا كـان يسـليني كثـيرا" ، فمعنى ذلـك أنـي أعـرف أسـرارا" خطـيرة وأن دوري سـيأتي قريبا") . أما زوجي ، فإن كان هو ، فلقـد انتـهز الفرصـة ليـترك الغرفة . تتالت مكانـه صـور مدهشـة ، مـن أقنعـة ، وسـتائر ، رواية مصورة كاملـة انتـهت باختطافـه منـي وبإخفائـه إخفـاء" كاملا" ، وقد زاد تراجعه إلى أعماق كيـاني وفـي ذاكرتـي ، كـان في منتهى العمق حتى إن الهلع قـد سـيطر علـيَّ بمجـرد التفكـير بفقده تماما" وبعدم رؤيته ثانية ، بالمعنى الحقيقـي . ثمـة شـيء مـا قد سال برطوبة مزعجة على خديـيَّ كمـا أن صـدري قـد أفلـت فواقا" ، فأخذتني جاكلين في ذراعيـها .

إذا افترضنا أن جسمنا مكون من مجموعـة حواجـز (الجلـد، الأدمة ، العضلات ، غشاء الأعضـاء ، الحـائل المنـاعي ، وثمـة شيء يصعب تعريفه هو الذي يحافظ فـي كـل طبقـة علـى بنيـة الطبقة التالية ، حتى القلـب ، والنخـاع الشـوكي ، ممـا يجعلنـا، نحـن ، نتقلـص تحـت الأغلفـة والشـوائب المتراكمـة ، وهـي إلكترونيات متناهية الصغر تدور حول ترهـة غـير مرئيـة تشـكل

مع ذلك جوهر مائنا) ؛ بل إذا افترضنا أن الحب الجسدي قد يجعل بعض هذه الحواجز تتحطم إلى أن يخرج هذا المحار قليلا" جدا" خارج صدفته (أسمح لذاتي هنا بصورة عن أنفسنا قد تبدو ولا شك سريعة في نظر جاكلين) لكي يذهب هذا المحار ، بغمدية أجنحته الصغيرة جدا" أو بما شابه ذلك ، يتلمس من الأمام طرف قرون استشعار المحار الآخر المحبوب الموجود أمامه ؛ إذا افترضنا ذلك كله فحينئذٍ يحدث شيء مثل ما جرى معي ، حين أخذتني صديقتي ، وإن كانت تجادل وتبرهن على أن مجرد التفكير في زوج اختفى بسرعة وكأنه قد تبخر يثير فيها الغثيان ويبعث فيها تموجا" عنيفا" من الدوار ، وإن كانت هذه الصديقة تحضر بانتظام اجتماعات سخيفة وتتوصل أن تأخذك إليها وهي تتهمك بعدم وعيك الغريب – أجل ، يحدث شيء مماثل حين تأخذك هذه الصديقة في ذراعيها. كانت جاكلين تربت بيدها شعري بلطف ، في حين ضمتني بيدها الأخرى ، دون أن أستطيع الاستسلام بطمأنينة ، إلى صدر تتجاوز فساحته قبعتيّ صدري الهزيلتين . كانت الحواجز التي تحدثت عنها تنهار الواحد تلو الآخر بعيدا" تحت كتلة متراخية من السائل الذي كان يشكلني ، تركتها تحملني برقة ، تهدهدني ، وقد أنهكت وتفككت في نهاية الأمر ، في حين كان السائل يخرخر خارجا" عني ، ينبثق من عينيّ بشكل حسي بحت ، وقد انتشر على شكل دفء عذب ، وراح ينساب في الذراعين الرخوتين قليلا" ، وفي البطن المتعب قليلا" ، والصدر المرحب لدى جاكلين ، صديقتي الفضلى .

عندما ذهبت جاكلين ضعت ضياعا" كاملا" ، التصقت بالجدار جاثية على ركبتيَّ، بلا حراك وقد فقدت صوابي ،

١

واجتاحتني داخل أحشائي رغبة حيوانية في أن أصرخ صراخا" 'مصمتا" .

أرغمت نفسي على تسخين الحساء الذي أحضرَته لي ، وأخذت أتأمل الشارع وقد بدأت ظلمته تشتد ، كما زادت عتمة السماء وتلبدها ، وكان يثقبها بريق خافت تلتهمه مصابيح الشارع . لم يتوقف الزمن مع اختفاء زوجي . إن كنت سأجابه ليلة ثانية بدونه ، فمن يستطيع أن ينبئني أن لن يكون هناك ليلة ثالثة ، ورابعة ، و هلم جرا" ؟ من يستطيع أن يؤكد لي أنني لم أدخل هكذا في زمن مكونٍ من الديمومة ، والانتظام والمعايير المحددة ؟ زمن قد يرغم جسمي و فكري على قميص العادة القسري الذي 'يلبس للمجانين ؟ كنت أرى ، وقد ثبتت أمامي ، نقط ضوئية خافتة لهذه الليالي الوحيدة كأنها لمبات كهربائية تتدلى فوق ليالي سهادي ، وقد تضاعفت في مرآة السماء الخالية، ليال وليال بكاملها أنظر إلى السماء وحدي (الفضاء كلوحة ذات نسيج مهلهل ، 'يستشف منها ، وقت النجوم ، شيء أخر ، يختلف عن النهار ، والنور ساطع ، ولكن مهما حاولنا أن تشرئب رؤوسنا ، فإن الغشاء الكاتم يقاوم ، فنختنق) . بللت شفتي في طاسة الشوربة ، وأنا على يقين حسي ، وقد انقبض بلعومي ، على نقيض الشهوة ، بأن جسمي لن يدع شيئا" يدخل؛ وشعرت بطول الوقت في عروقي ، كما شعرت بتخثره في الجدران وفي الشوارع . تذكرت بعض السهرات التي أمضيتها وحدي ، بعض منها ، ما ندر ، قبل أن ألتقي زوجي ؛ وبعضها الآخر ، لاحقة ، حين كان ينهي إضبارة أو يسافر إلى الخارج

لدراسة السوق : كنت آخذ كتابا" ، أحتسي القهوة ، آكل الشوكولا ولا أطبخ ، كنت أمضي ساعات أتحدث بالهاتف مع أمي أو مع جاكلين . ولكن الوحدة التي كنت أراها أمامي ، في هذا المساء الثاني لاختفاء زوجي ، لا مثيل لها ؛ لم تكن هذه الوحدة تمت بأية صلة لذاك الزمن الحميد ، حين كنت عازبة أو مكورة في السرير الزوجي ، وروايات الرعب في يدي ، أرتجف هلعا" وأنا أنتظر بهدوء القفل يطقطق ، والباب يفتح ؛ كانت الوحدة التي أراها أمامي ملموسة ، أما الآن فهي قسرية و خشنة ، جليدية ومليئة بالأشواك .

<< 'دفنت حية !>> كان هذا ضربا" من تمارين المخيلة، أقرب إلى الرغبة (كنت مختبئة تحت اللحاف ، والمصابيح قد أضيئت كلها ، ومصارع النوافذ مغلقة خوفا" من وجه مخيف ترعبني حركاته قد يظهر على النوافذ ، كنت أقرأ خلسة هذا النوع من الكتب ، وقد أحسست شعورا" كبيرا" بالأمان يكاد يوازي شعوري وأنا بين ذراعي زوجي) ؛ كان هذا تمرينا" من تمارين المخيلة وكذلك من تمارين الرغبة : أغلق عينيي ، أمد يدي أتلمس مداعبة عن قرب شديد حاجزا" ، إنه قاس ، أملس ، ناعم ، أريد أن أنتصب على مرفقي فيصطدم رأسي بعنف ، وقد اشرأب عنقي ، وسال الدم من جبيني ، فأنزلق إلى الأمام ولكن قدماي تصطدمان ، وخلفي كله خشب ، وقمة رأسي تدق ، ولا أستطيع فتح الذراعين ولا إبعاد الردفين لأنني مكبلة من كتفيي حتى أطراف أظافري ؛ علي أن أدرك أنه من العبث الصراخ ، فليس أمامي إلا الوحدة في ذروتها. والنعش الذي كنت أرى

نفسي فيه (وأنا ضحية إنســـان ســادي يعذبنـــي ، أو مجنــون ، أو باحث مهووس ، أو مؤامرة أكــون فيــها الشــابة الرهينــة) ، وقــد يكون هذا النعش عاريا" أو منجدا" ، تنبعث منـــه رائحــة الصنوبــر ، أو النحاس ، أو الشموع ، حتى إنني حيــن كنــت مرهقــة فكربــا" ، كنت أجد في الجثـــة الســابقة الأشــلاء والعظــام ؛ ولكنــي كنــت بخاصة محبوسة ، ممسكا" بي ، مشلولة ؛ والفســـحة الوحيــدة التــي تركت لحركاتي كانت تلك التي تؤدي بيـــدي إلـــى عورتـــي (إلاّ إذا عقِّدت القصة ، يداي مكبلتان ، وأنا أتلوى بعنـــف كـــي أنجــو مــن هذه العلبة الضيقة) . إن لمس أصـــابعي ، تلــك الحركــة الطفوليــة التي كنت أسترجعها فورا"، بضغط لحم علــى لحــم ، يبلــل راحــة كفي حالا" ، كانت هـــذه الحركــة الســريعة والســهلة والتــي هــي بمعزل كامل عـــن الرجــال ترفعنـــي فـــوق الأغطيــة والتوابيــت ، تنثرني بعيدا" ، فتتبعثر بعنف كـــل ذرة منـــي . كنــت ، حيــن أقــع ثانية على السرير ، أكون قد بنيت من جديد بشـــكل مختلــف : لقــد أطلق هذا التبخر كما أحرق كل ما كان يعيق حســـن ســير ذراتـــي. حين كان يعود زوجي يجدني غارقة فـــي النــوم ، عذبــة ونديــة ، أتذمر إذا حاول إيقـــاظي فيمــا بعــد . وأحيانــا"، إذا لــم يســتهوني الكتاب كثيرا"، كنت أسمع وقع أقدامـــه علـــى الســلم ، كمــا أســمع صوت المفتاح في القفــل، و كذلــك نعــلاه علــى البســاط ، فكــان يجدني جالسة أستند على كومـــة مـــن الوســائد ، وفنــاجين فارغــة عنـــد رأســـي ، حينئـــذٍ نمــارس الحـــب .

لم تكن ليالي الحب هذه ، التي اختفت مـــع زوجـــي ، هـــي التي جعلتني أهتز من وقع ألم لا يمكـــن البـــوح بـــه بســبب غيابــه الفيزيولوجي ، فأبعدت طاس الحساء الذي لـــم أكــد أذوقـــه ؛ كـــانت

ذكرى هذه السهرات الوحيدة المزيفة ، وفقدان ذاك الانتظار ، وسط تلك الكتب حيث تفتح توابيت مفزعة وساخرة : تخيلات ميتةٍ كانت في تناقضها مع أغطية السرير الدافئة توقف فيَّ تدفق النشوة الجنسية .عرفت من الآن فصاعدا" أن بإمكاني أن ألقي بنفسي على ملاط الحائط ، تاركة نتفا" من الجلد على وشاحها الأبيض بياض العظام . كان الاختلاف بين الحضور والغياب في آخر الأمر أكثر تجريدا" ، يقبله العقل قبولا" أفضل ، من الاختلاف ، الملموس والمتوقع ، بين ليلة يسيطر عليها هوس كاذب (حيث سيعود من هو موجود دائما"هنا) وليلة ، كانت أحشائي تغور من هذه الفكرة ، شأنها شأن الليالي التي صارت من الآن فصاعدا" تهددني بأن تصبح لياليَّ.

لو استطعت على الأقل أن أشعر به في مكان ما ، وإن بعدت المسافة ، وإن رحل نهائيا" ، وإن كان عميلا" سريا" أو مهووسا" أو نباش جثثٍ ، لو أشعر به وأحس وجوده ! أخذ الفراغ حولي يتماسك شأن بلاطة ، أو مثل إسمنت يتجمد ليصير صلبا" 'يلمس ، كما اتخذ الهواء سمة خاصة ، وكذلك الظلال والسكون ، وكان للجدران جمود مميز ، وللنوافذ وللأبواب شكل عمودي قائم بذاته . كان عاكس النور الذي اخترناه ، وهو من حرشف صناعي ، يتفق ولون خيزران الأثاث ولون سعف نبات اليكة ، قد تدلى من السقف كقطرة توشك أن تقع ، شأنها شأن كارثة مكثفة تضغط عليَّ ، وإن مجرد إبعادها (بإطفاء النور ، والغوص في الظلام) قد يدفع الكائنات المرعبة والأشباح لتتخذ شكلا" فتظهر . لم يكن لذوقي

ولا لذوق زوجي في اختيـار الأشـياء أيـة علاقـة بذلـك ؛ ولكـن الأمر كان يتعلق بزوايا الأثاث ، و بانعكـاس أشـعة المصبـاح ، و بتجاويف الجدران ، وبلمعان التلفاز ، و بانبسـاط الأجـزاء السـفلية من الجدران ، وكذلك بحرشف المصبـاح ، وبالبسـاط : كـان كـل ذلك يقتصر على حضور الأشـياء ، وعلـى الفـراغ الـذي تعطيـه هذه الأشياء شكلا" . إني لا أتحـدث عـن الذكريـات المشـتركة ولا عما توحي به الأشياء ؛ إني أتحدث عـن تجمـد الفـراغ وتصلبـه. كان ذلك عبارة عن طريقـة فيزيولوجيـة ، عقلانيـة ، تتـم وفـق القوانين المعروفة في نظامي الشمسي . رحـت أصطـدم بـالجدران وقد امتلأت بفراغ زوجي مثل لوح أسـود قـد يشـرح لـي غيابـه على شكل معادلات . لقد حلَّ الفراغ في المكـان عينـه الـذي كـان زوجي يشغله . أخذت الجدران تـتراقص فـي عينـيَّ . والمصبـاح تدلى . وصارت النوافذ متطاولـة الشـكل . فتشـنجت عضلاتـي ، وارتخت أحشائي . في حيـن كـانت أعصـابي عرضـة اجتـذاب داخلي . كان الفراغ يفرغني من الداخـل ، كفـروج هزيـل ، مـن لحمي ومن فكري . أحسست تحت قفص عظـام صـدري سـيولا"، إلاَّ أن الهواء حولي قد جمد جمـودا" كـاملا" ، غـير آبـه بعمليـة التفريغ ؛ كما إن الهجمة التـي انصبـت علـيَّ لـم تقلـب تـوازن الغرفة ، ولا ملأت ما يحيط بها ، كما لـم تحـدث أبسـط حركـة . كان جو قاس يثقل على وجنتيَّ ، وعلى ذراعـيَّ ، وعلـى سـاقيَّ ؛ كان رماد يتحجر ، فـتزداد كثافتـه ، يصوغنـي فـي قالبـه ، ثـم يشدني ويسلب سمتي ، وبعـد أن أكـون قـد ذبـت بـدوري إثـر عصائر مختلفة ، يحتفظ بـي فـي متحـف الغيـاب مثـل الأجسـاد الجوفاء في مدينة بومباي . كنت جالسـة ، ونظـري مثبـت علـى

عاكس النور ، وقد كان مــن الممكــن ، دون أن أعــرف ذلــك ، أن أعلق من قدميَّ بملاط السقف ، رأسي إلى الأســـفل مثــل مصــاص دماء بائس قد فصد دمـــاءه بنفســه ، متكــورا" ، منازعــا" يمــوت ، وكلــه غبــاء ، وســط دفء حيوانـــي يغلفــه بالســـواد .

أسترجع ، وأنا أحاول أن أصف تلك الســـهرة ، الــدوار الــذي كان يجرف دماغي في مثعب ضخم ، فينقيــــه مــن ذراتــه المفكــرة ويبث فيَّ هذا الفراغ ، بقـــوة جنونيـــة تـــوازي قـــوة كوريوليـــس . وصلت إلى النقطـــة الدقيقـــة التـــي انحصـــر فيــها كيــاني : وهــو يرقص في الظلام مثل بريق أخير لدماغي الخـــــاوي ، بقـــي لمعـــان خافت جدا" ، ألا وهو وعـــــيَّ بـــأن أشــارك المصبــاح ، وعـــاكس النور ، وصوف البساط وأفـــق أســفل الجــدار ، طريقـــة وجودهـــا عينها ، أن أكون هنا مثل راسب كلســـي آخــر لمـــلاط الســـقف ، أو كدبوس يلمع بريقا" خافتا" جــــدا" ، قــد علــق فـــي نسـيج الســماء الأسود .

(٦)

أذكر أني وجدت ، في خزانـــة الصيدليـــة ، الحبـــوب المنومـــة التي كان زوجي يأخذها أحيانا" ؛ كنت آمـــل بتنـــاول ثـــلاث حبـــات مدورة ضخمة أن أغفو شبه غفـــوة . ولكنـــي بقيـــت فريســـة هـــذا اللولب المثير للأعصاب فعـــلا" ، كـــانت عروقـــي وكذلـــك أمعـــائي المسلوخة ترن خـــارج علبتـــي الخاويـــة . راح كلـــب وقـــد تـــرك وحيدا" ينبح في البناية ، وبـــدا مســـقط الـــدرج قـــد أخـــذ ، وســـط التموج ، عمق القفص الصدري الذي يدقـــه النبـــاح بالمطرقـــة . إن نوعا" أشبه بالنعاس قد يسلمك بفظاظة إلى أحاســـيس غوليـــة : فـــإذا أصيب أحد بمجرد التهاب بسيط في حلقه ، شـــعر بأنـــه بكاملـــه قـــد صار بلعوما" عاريا" ، وقد 'قلب الداخل مثـــل قفـــاز ، مثـــل غشـــاء مخاطي مقشوط ورطب . تذكـــرت بعـــض القـــردة التـــي وصلـــت حديثا" إلى حديقة الحيوانات ، وقد رأيتـــها 'جنـــت غضبـــا" ، وهـــي تهز القضبان الحديدية حتى تنخلع سلامياتها ، تصـــرخ وقـــد فقـــدت صوتها ، و'سحقت أوتار حلقها . كنت هـــذا التلقيـــح المؤلـــف مـــن القرد والكلب ، لم أعد أقوس ظهري ما يكفـــي لأعلـــو بعيـــدا" عـــن الأوهام . نمـــت وســـط أحـــلام حيوانيـــة . لا أدري إن كـــان نبـــاح الكلب المستمر هو الذي أيقظني آخـــر الأمـــر ، أم نفـــث الكـــابوس الذي رأيته ، شدقا" أحمرَ ، نهما" ؟ ثمة أوقـــات فجـــر نتـــأكد فيـــها من أنه ليـــس فـــي عنقنـــا أثـــر لمصـــاص الدمـــاء ، أي نقطتـــان صغيرتان باللون الأحمر ، والحدقـــة مـــا زالـــت متشـــنجة حقـــدا" ، والعضلات متوجعة من المعركة. نضَّحت وجـــهي بالمـــاء البـــارد،

وللأبواب شكل عمودي قـائم بذاتـه . كـان عـاكس النـور الـذي اخترناه ، وهو مـن حرشـف صنـاعي ، يتفـق ولـون خـيزران الأثاث ولون سعف نبات اليكـة ، قـد تدلـى مـن السـقف كقطـرة توشك أن تقع ، شـأنها شـأن كارثـة مكثفـة تضغـط علـي ، وإن مجرد إبعادها (بإطفاء النور ، والغوص فـي الظـلام) قـد يدفـع الكائنات المرعبة والأشباح لتتخذ شكلا" فتظـهر . لـم يكـن لذوقـي ولا لذوق زوجي في اختيـار الأشـياء أيـة علاقـة بذلـك ؛ ولكـن الأمر كان يتعلق بزوايا الأثاث ، و بانعكـاس أشـعة المصبـاح ، و بتجاويف الجدران ، وبلمعان التلفاز ، و بانبسـاط الأجـزاء السـفلية من الجدران ، وكذلك بحرشف المصبـاح ، وبالبسـاط : كـان كـل ذلك يقتصر على حضور الأشـياء ، وعلـى الفـراغ الـذي تعطيـه هذه الأشياء شكلا" . إني لا أتحـدث عـن الذكريـات المشـتركة ولا عما توحي به الأشياء ؛ إني أتحدث عـن تجمـد الفـراغ وتصلبـه. كان ذلك عبارة عن طريقـة فيزيولوجيـة ، عقلانيـة ، تتـم وفـق القوانين المعروفة في نظامي الشمسي . رحـت أصطـدم بـالجدران وقد امتلأت بفراغ زوجي مثل لوح أسـود قـد يشـرح لـي غيابـه على شكل معادلات . لقد حل الفراغ في المكـان عينـه الـذي كـان زوجي يشغله . أخذت الجدران تـتراقص فـي عينـي . والمصبـاح تدلى . وصارت النوافذ متطاولـة الشـكل . فتشـنجت عضلاتـي ، وارتخت أحشائي . في حيـن كـانت أعصـابي عرضـة اجتـذاب داخلي . كان الفراغ يفرغني من الداخـل ، كفـروج هزيـل ، مـن لحمي ومن فكري . أحسست تحت قفص عظـام صـدري سـيولا"، إلا أن الهواء حولي قد جمد جمـودا" كـاملا" ، غـير آبـه بعمليـة

ولكني تعرفت عليها فجأة ، من نبرة خاصة ، من إمالة صوتية على المقطع الثاني من اسمه ، اسمه هو ، الذي لا أستطيع تغييره ، الاسم الذي أعطته إياه من بين الأسماء كلها ، هي، حماتي ، التي تريد أن تتحدث إليه في هذه الساعة المبكرة جدا" . فليذهب إلى الشيطان ليف الأم هذا ، ليف أمومتها الذي يرن وقد غرز على خازوق متدرب بمهارة على التعذيب ، كل هذه الألياف التي ولدت زوجي بدوني . كانت قدرٌ ساحرة تغلي حولنا ؛ كانت حماتي ، وإني أعلم ذلك ، في هذا الوقت ، مثلي ، في وسط هذه القدر الضخمة التي تغلي ، كانت تبحث عن ابنها بين الفقاعات ، قبل أن تذوب في مشارب القلق السحرية ، للصباح الباكر الوحيد (لهذه الساعات الأربع الرمادية حيث مصاصو الدماء يخدشون الجدران ويتقبلون بصعوبة بزوغ الفجر، وحيث يرتفع مع الشمس شيء ما يدق بقدمه ، فيطفئ مصابيح الشوارع، ويحرك عربات المترو ، ويهز الخبازين ، ويفتح عين طيور النورس ، ويسدل الستائر ويجلس في المقاهي شاربي القهوة ، الذين هم ذاتهم ، وقد سلكوا الطريق نحو عملهم ، سيبددون دخان القدور بإغفالهم عدم الشعور به) . سأذهب لزيارتها ، لقد وعدتها بذلك ، أعدت ذلك على مسمعها كما على مسمع سيدة مسنة جدا" تنتظر النجدة من أي شخص ما ، ربما من جارة بعيدة ، أو من شابة رؤوف ساعدتها ذاك اليوم على حمل مشترياتها إلى الطابق الأول ، نامِ ثانية ، كل شيء على ما يرام ، سآتي لرؤيتك . قد يكون من السهل أن أزورها في الحلم ، وأن أخمد هواجسها وحدسها برؤى مطمئنة ، أن أجعلها على اتصال بما كان عليَّ، من قبل ،

أن أستشف عن ابنها بقسر إرادتي وصدأ خلاياي العصبية ؛ ولكني كنت ضعيفة جدا" أثير الشفقة ، حدَّني الزمن بشكل مزرٍ ، كما حدَّني المكان والقلق ، أتخبط بثقل مثل أسود البحر في لفائف الموج . حاولت أن أتصور ، بجهد عظيم ، وقد وضعت يدي على جبينها ، اليد ذاتها التي وضعتها جاكلين عليَّ ، ولكن جاكلين تفعل ذلك بمنتهى العفوية ، فتنفذ يدها إلى ما تحت جلد جبيني وكذلك تحت جلد أولادها وربما تحت جلد زوجها .

عدت إلى غرفة نومي ، غرفتي التي ما زالت مظلمة تماما" وكنت أعرف أني لن أنام فيها ، ولكني كنت أريد أن أتمدد على فراشي ، وأن أرخيَ ساقيَّ ، وذراعيَّ ، وصدري ، وأن أهدئ معدتي ، وأفتح ثانية حلقي ، وأوسع رئتيَّ ، وأبطئ دقات قلبي . بدا لي الآن أنه ، إذا فتح زوجي الباب وخلع بتمهل حذاءه على البساط ، متّ ، فرحا" ، وغضبا" ، وتأثرا" . كنت أتلمس في الظلام كي أجد حافة السرير ، وأتقدم ، باسطة اليدين، عرضة لأن تصطدم عظام ساقيَّ بزوايا المفرش ، وقد استعددت منذ زمن طويل ، منذ خطوات كثيرة ، وأنا متشنجة أخشى ألما" جسميا" ؛ تقدمت بتمهل أكبر ، وفتحت ذراعيَّ أكثر بقليل ؛ لم يكن أي خط نور ينفذ ، حتى إن الظلام كان يبدو كأن كثافته تزداد . وبما أني لم أجد السرير ، رحت أتلمس الآن أول شيء تقع يدي عليه ، من حائط ، أو مصباح كهربائي ، أو باب ، أو نافذة ، أي أول شيء مادي يتفضل بأن يعترض طريقي . ابتكرت لنفسي ذراعا" يرصد عن بعدٍ ، ورقبة تستطيل كرقبة السلحفاة ؛ أصبحت كلي رأسا" يفتش فلا يجد

شيئا" ، صرت رادارا" ، وسواري لاقطــة، وحراشـف ، ومكـبرات صوتية بمقدرة فائقة ، و عينيـــن مشـحوذتين لرؤيــة مــا لا يــرى بــالعين المجــردة ؛ كنــت أحــس تفكــك الكتــف ، والمرفـــق ، والمعصم، والسلاميات ، وقــد انخلعــت بأجمعــها . فتسـمرت فــي مكاني . كنت وحدي وسط الظلام ، أنا وحدي من كــل المدينــة قـد حرمت من الفجر ، وقد زججت نفســي بغبــاء فــي المــهالك وأنــا على يقين راسخ كالحديد بأن النهار قد أشــرق فــي غرفتــي .

حين يضيع المرء في الغابة ، وهذا مــا ُيــردد علــى مســامع الأولاد: عليه أن يدور نصــف دورة ويمشــي دائمــا" نحــو الأمــام مباشرة ، دائما" إلى الأمـــام ، فسـيجد الإنسـان المخــرج قطعــا" ، كما فعــل المستكشـفون فــي بطــن الأهرامــات اللعيــن . طبقـت القاعدة، ولكــن عــدد خطواتــي كــان يــتزايد ، ويتجــاوز كثـيرا" حساب الذهاب ، وكان يبـدو فــي الظــلام لامتناهيــا" (صغـيرا" ، حين ندخل في النظام العشري ، نريد أن نزيــد العــد ، ونظــن أننــا سنجد الطرف النهائي ؛ والأمر ســيان حيــن ننظــر فــي مرآتيـن موضوعتين وجها" لوجه فنضحـــك فزعــا" لأننــا نجـد ذاتنــا قــد تضاعفنا ؛ فندرك أننا لن نذهب أبعد مـــن ذلــك ، ونمضــي حياتنــا كلها فعلا" ولن نفهم أكثر من ذلك ، كــل مــا نستشــفه هــو غيــاب حافات العالم ونهاياته) . لم يكــن ظلامــا" ولكنــه مجـرد ســواد ، وأنا في الوسط آمل أن يستمر الزمـــن فــي جريانــه ، وأن يطــرأ حدث ما ، أنا فـــي الوســط بعروقــي وبعضلاتــي وهــي تتشـتت بسرعة في لا شيء ، أنا المكونـــة مــن ذرات مــن اللحــم والفكــر تفككت فأصبحت غيوما" (تمـــدد فــاقت ســرعته توســع الغرفــة ،

غرفة ضبابية وأنا بين حدود تزداد غموضا") . تأكدت من الواقع الملموس كم حلمت بنظريات الفيزياء الكمية : لا تنظر ، لا تراقب ، اصمت ، ضع وعيك جانبا" ، لقد مت ولكن الكون يعرف بدونك حالات بدائية ، ضبابيات أشياء لا وجود لها قد تعطيها رؤيتك لها شكلا" ؛ إنك الصياد على شاطئ البحر ، أو ربما أنت البحر ، أو قد تكون أنت احتمالية السمك في البحر ، ولكن ما دام لم يهز الصياد الشص ، فإن السمكة لا وجود لها . كان في الغرفة الدافع المحرك ، الدافع المحرك والظلمة . شيد جدارا" ، اثقبه ثقبين معا" ، اقذفه بالإلكترونات ولا تنظر ؛ تقفز الإلكترونات إلاً أن بعضها يمر ؛ ولكن ، في لحظة ما ، يخترق إلكترون الثقبين معا" ؛ لاحظ ذلك جيدا" : إلكترونا" واحدا" ، من الثقبين معا" . لا تنظر إلى هذه الكأس على هذه الطاولة ؛ خلف ظهرك ، بأي شكل يمكن أن توجد بين ضبابية الاحتمالات ، قبل أن تبسط يدك بعزم نحوها ؟ إنها تجربة عادية . تقوم بها يوميا" . فالكأس على الطاولة تقوم بدوران محوري خلف ظهرك . تتحول الطاولة إلى ضباب طاولة ، كي تأخذ فورا" ومن جديد شكلا" ماديا" ما أن تنظر إليها ، ما إن تلمسها بأصابعك . لا تحاول أن تباغتها : إن سرعة النور هي الطاقة التي تكثفها . سيبقى لها دائما" شكل طاولة صغيرة مقبولة ، يومية ولا تلفت الانتباه ، بمجرد أن تترك جريدتك أشعث الشعر حانقا" لتقفز عليها . إنك تعرف ثمنها ، وطولها ، والغطاء اللازم لها ، كما تعرف البطاقة التي لصقت تحت سطحها (مصدرها ، وزنها ، المادة المصنوعة منها : وكأن هذه الطاولة جندي صغير قد وقف ينتظر الأوامر) ؛ ولكنك لا تعرفها .

ومع ذلك يبقى كل شيء في متناول يدك . إن الأشباح ، وإن 'سميت ، و'لمست أو 'عبرت ، لا تفقد شيئا" من قدرتها ولا من ليونتها .

رحت أسير في الغرفة ، مستسلمة . لا بد أن زوجي موجود في مكان ما ، قد يكون شفافا" ، يوشك أن يخرج من العالم ، ولكنه حتما" في مكان ما ، وقد انحنى على الأطراف (ما يحسن افترانه حافة) وهو ينظر إليَّ ؛ مثل الموتى الذين يعرف الأحياء أنهم لا يزالون هنا ، مختبئين في نبات الخلنج أو تحت الطاولات الدائرة التي تنقل حديث الأرواح ، خلف الأبواب، في العلية يدقون بمشط أقدامهم ؛ في المطبخ يبرمون الملاعق ، في الممرات يجلون السلاسل ترن ، أما الموتى الأقل فظاظة بينهم : فيظهرون على شكل نفحات تحت الستائر في غياب الريح . أن زوجي ، مقلدا" الموتى ، لا بد من أن يومئ إليَّ بإشارة ويعيدني إلى الوجود؛ ربما كان تلاشي الغرفة تلك البادرة ، الإشارة التي كان يراقب . شأنها شأن المصابيح الصغيرة ، في غرف نوم الأطفال ، التي تضيء فتنير المجرة . أو قد أتنقل في غرفة أطفال، فألمس أخيرا" إحدى الستائر ، وأفتحه على ضوء النهار ، على المدينة ، على صيحات أولاد المدارس ، أو على صدمة الألعاب المطبق . أو قد أصطدم بشيء دافئ ، ذي وبر ، دبق ، ولزج في بعض الأماكن ، فأقول في نفسي ، إذا طلع النهار أخيرا" ، أليست الدماء ما سترين على أصابعك ؟ وإذا أخذت مقصا" لتفتحي بطن هذا الدب المصنوع من الوبر ، ألن تجدي : تحت زر السرة ، أحشاء"

ساخنة و مزرقة ، ألن تدخلـــي يديـك فـي العصـــائر العضويـــة ، وفي امتداد الأمعاء ؟ ألن تجدي قلبـــا" صغـيرا" ، وفـــي الأعلـــى ، نحو الرقبة ، شــــرايين تنبـض ، وأعلــى مــن ذلــك أيضــا" ، إذا ضغطتِ وكسرتِ بعض العظام ، قد تجديـــن أثــر أســنانٍ صغـيرة لم تظهر بعد ، ولسانا" يستعد للتكلم ؟ إن الأشــباح بقــوة ، تســتطيع أن تجننك . رميت الدب عني إلـــى أبعـد مـا اسـتطعت فـي الـلا شيء . .طار دون أن يحدث صوتا" لوقوعـــه ، بـلا نتيجـة ، وبـلا هـدف.

أرض وثقل . كان بساطنا الأبلـــه ، تعرفـت علـى ملمســه ، وعلى الغبار الملتصق بــه . كنـت هادئـة . اسـتمر الزمـن فـي جريانه وكذلك الدماء في انسيابها . لم يكـــن ثمـة طريـق 'يتبـع ، ولا مكان 'يتلمـس ، ولا كـرة غـزل تكـر خيطـها ليدلـك علـى الطريق ؛ كانت المفروشات ، والجـــدران ، والأشــرطة الكهربائيـة قد تباعدت أمامي كما تتباعد الأشواك أمام حصـــان الأمـير ، كنـت على وشك أن أســتيقظ .

ستطيع الآن فقط أن أتخيل . حين عدت إلـــى نفســي ، داخـل ذاتي ، حين استعادت ذرات كياني شكلا" (مـن كـان ينظـر لـيَّ ؟ من أين ؟) ، فركت وجهي بشدة ، أعــدت تشـكيله ، كـان هنـا ، وقد وضع فوقي ، دهنيا" إلى حد ما ولربمـــا لزجـا" ، ولكـن المـاء تفي بـالغرض ، نزعـت المـادة الشـمعية عـن عينـيَّ ، ولعقـت الألياف التي كانت تملأ فمي ، وفتحت باب غرفـــة النـوم .

(٧)

كان السرير قد استعاد مكانــه ، والنــافذة ركنــها ، والجــدران قواعدها المخادعة . وأشــرق النــهار إشــراقا" كــاملا" ، ويبــدو أن الطقس سيكون جميلا" . أضأت المصابيح ، غــدا كــل شــيء مــن الآن فصاعدا" محتملا" ، الكسوف والخســوف ، والجنيــات الدقاقــة، إسقاط الثقوب السوداء حتى داخل المنــازل ، دخلــت الحمــام وأنــا أتأكد من الباب ، ومــن القفــل الصغــير ، قــد لا يغلــق ورائــي . تحت رشاش الماء كنت أنظــر إلــى فخــذي ، وبطنــي ، ونــهدي ، وقد غطتها فقاعات الصابون والمــاء الــذي كــان يجــري فوقــها . فتحــت الســتارة ، غــير مباليــة بتلــوث الأرض ، أردت أن أرى غرفة الحمام بمجملها لأنه من العسير دائما" ، حيــن أكــون متوتــرة قليلا" ، أن أقاوم صورة شــفرة تشــق قمــاش الســتارة بصمــت ، وبالحركة عينها تشرط ببــطء (فــي البدايــة فقــط) جلــد منــاطق جسمك القطنية ، فينفذ الــرأس برهافــة ، لقــد أحســن ســنه حتــى تظنين أن هناك دفــق مــاء أشــد بــرودة ، تتلمســين بأصــابعك ، تريدين أن تنظمــي الخــلاط فتفــاجئين بالمــاء وقــد احمــر عنــد قدميك، تضعين يدك بين ساقيك ، أنــت هنــا ، قــد تكــدرت نوعــا" ما، تحسبين دورتك المؤلفة من الثمانية والعشــرين يومــا ، وتريــن الفتحة والنصل وجزأي الستارة الممزقين . نشــفت جســمي بعنايــة. فتشت عن قارورة زيــت اللــوز للحمــام حتــى وجدتــها ، دلكــت كتفي وعنقي ، كورت نــهدي وشــددتهما ، مســدت بطنــي وأنــا أصعد ثانية على الجوانب ، صقلت داخل الفخذيــن، كمــا ضغطــت

علــى كليتــيَّ ، ودلكــت رقبتــي . رفعــت شــعري عاليــا" جــدا" وأمسكت بالمكنسة الكهربائية ، فشرقت الغبار عـــن كــل الأشــياء ، عن المفروشات ، وعــاكس النــور ، واللمبــات ، ونبــات اليوكــا ، والأريكة ، والملاط ، والبساط طبعا"، عن كثير مـــن الزوايــا التــي لا أراها مطلقا" ، فعندما سيرجع زوجي لــن يبقــى ولا ذرة غبــار. رششت بالأثير الزجاج كلــه ، أخــذت هــذه المــهارة عــن أمــي ، ولمَّعت كل شيء ، لم يبقَ أي أثرٍ ، ويمكـــن المـــرور مـــن طـــرف إلى آخر. أفرغت صحـــن حســاء الليلــة الفائتــة وغســلته ، ثــم صففتــه . فتحــت الــبراد للتهويــة ، مســحت جدرانــه الداخليــة بالإسفنج ، كما مســحت جنــاح قطــع الثلــج ، وكذلــك التجــاويف لوضع البيض ، كما مسحت الصف المخصـــص للزجاجــات ، كــل هذه الأماكن التي لا تخطر على بــال . صببــت مــاء الكلــور فــي حوض الخضار ، وصببت منـــها فيمــا حولــي ، رحــت أفــرك بالممسحة ، أخذ البلاط بسبب الكلور هذا اللـــون الأبيــض الكــالح ، وحتى اللمعان فلقد أذيب . قفزت مــاء الكلــور إلــى بســاط غرفــة الاستقبال ، هناك الآن بقــع فاتحــة اللــون فيــها ، غــيرّت مكــان حوض اليوكا لأخفيــها . أفرغــت نهايــة الزجاجــة فــي الحمــام ، وضعت مناشفنا مع الأشــياء المتســخة ، وبالحركــة ذاتــها رفعــت شراشف السرير ، وكذلك وجه الوسادات ، والغطـــاء ، لقــد أحــدث ذلك فرقعة امتلأت بالغبار الطائر ، وكــانت الشــمس التــي بزغــت لتوها تطير على شكل شــظايا مــن الزجــاج، كــان الغبــار يــدور فتتلاطم الأشياء في الغرفـــة ثــم تتكــور وتقــع ، مــلأت الغسّــالة الكهربائيــة .

دخنت سيجارة وأنا أجفف شعري على النافذة . كانت الشمس تعكر بغشاوة رقيقة حواف الأسطح المبهرة ، وكانت السماء الزرقاء اللامعة تنقسم مزقا" من الاهتزازات في زوايا الجدران ، راح يتصاعد غبار خفيف من الحرارة ، قد يكون الصيف . تجملت وأنا أضع المساحيق بالنظر في مرآة صغيرة، علي أن أعتني بأظافري أيضا" ، أن أكون نظيفة تماما" ولو لمرة واحدة ، وأن أخرج إلى الشارع . كتبت بسرعة كلمة ، سأعود بعد ساعة ، وثبتها على الباب بمسامير صغيرة ذات رؤوس عريضة .

قطعت عدة أمتار في الشارع . كان سيل كثيف من الشمع قد تحجز فوق المدينة فقلل النور ؛ كانت الحمام تدور على ذاتها وتنظر إلي خلسة ، ووقفت الجدران متطاولة ومنحنية . لم يكن الشارع ما رأيت من النافذة ؛ أو ربما كان ظهره بالضبط ، امتداده على القطب المعاكس ؛ ولكنه مع ذلك شارعي ، شارع كنت أسلكه كل يوم ، وكنت أفتح عليه باب البهو يوميا" ، بحركة سهلة ، ويدي على المقبض ، داخل البناية أو خارجها ، الذهاب والإياب ، وأنا التي أطوف في المدينة أرسم صورا" قد تتسع إلى حد ما حول مربع صغير أسكنه ، الطابق الخامس على اليسار . ولكن الجدران راحت تميل بعناد . الجبين على جدار المدرسة والمشرف على اللعب يعد < واحد > ،< اثنان>، < ثلاثة >، ويصرخ < شمس!> وهو يستدير (فنأخذ وضعية التماثيل ، يجب ألا نتحرك ، فتنتفخ نوبة الضحك المتواصل في بطوننا ، وتتضخم كثيرا" لتصعد حتى عيوننا ، فتتدخل في

أوعية الدموع وترغمها ، تحرقٍ ، سنموت إذا ما وضعنا رجلا"
على الأرض ، سنصعق إن رفَّ هدب ، ستنفجر مليارات من
الجزئيات) . من كان يدعني أعتقد أني ، أنا ، المشرفة على
اللعب ؛ في حين كنت أراقب ، وقد انتابتني ريبة ، الجدران
والحمام ستنفجر ضاحكة بسخرية مني ؟ كنت أدور عند زاوية
الشوارع كما كنت أدور وأنا صغيرة حول اللاعبين الساكنين ،
وراح الهلع يستحوذ عليَّ . كانت البيوت شاهقة ، صلبة ، قد
تشنجت من الجهد . لم أعد أجرؤ على أن أرفع رأسي . بدا لي
أن السطوح كانت تنحني فوقي ، بمنتهى الفظاظة ، وأن أقداما"
ضخمة قد تقتلع أسس الأبنية لتدهسني كما تسحق الدودة .
رحت أبحث عن فسحة ما ، كالحديقة ، أو ساحة دار الحكومة ،
ولكن الجدران راحت تتحرك خلسة ، وبشكل موارب ، لتخفي
تنقلاتها تحت جدران أخرى ، لأني كنت أجدها أمامي ثانية ،
جامدة ولكنها مكشرة ، عنيدة تقاوم بصمود ، كانت لبنات
القرميد قد تقوست على تحازيز الملاط ، والإسمنت قد التصق
بالعوارض ، ومصاريع النوافذ قد تشبثت بأحجارها الصلبة .
أسرعتُ السير ، ورحت أركض لأتقدم أبنيتها، في ورشة بناء
تامة النظافة ، والتي كانت تشبه ، بشكل يختلط الأمر فيه ، بناء"
منتهيا" ، سيدشن في اليوم التالي وقد زينت بالزهور الشرفات
كما زينت أرضية البناء ؛ ولكن إذا ركضت بسرعة ، وإذا
تداركت نهاية التعداد (وأنا أستدير ، أفاجئهم كلهم صارخة <
شمس >!) حينئذٍ أرى ما وصلت إليه الأمور رؤية واضحة :
أن الشمس لم تكن ’تجمد إلاَّ جدرانا" وهمية . اضطررت أن
أتجمد بدوري متحجرة : لأني رأيت هناك ، في وضح النهار،

في زاوية الشارع ، أنه لم يعد هناك جدران ، لم يعد هناك شارع ، ولا أسطح منازل ، ولا مدينة ؛ وهذه الخطوط الغامضة في الأعالي ، أما زالت حمامات ؟ ما كان يصعد نحوها عموديا"، متماسكا" تماما" تحت رجليها ، قد أوقفه القرميد أو الأردواز ، وثقبته في أعالي الهواء الوسطى إطارات تحدد مكعبات يلتجئ فيها الناس ؛ فما كان سابقا" يستفيد من المنظور كي يندفع بين حاجزين ويبسط تحت قدميَّ تصدعات الأفق ، مبعداً الأشجار والمنازل ليفسح لي ممراً ، وهو يوزع بدقة البلاط والطرق المرصوفة ، والمجاري وحافات الأرصفة ؛ فما كان يتسع فجأة ليتيح لبعض المتاجر ، وحتى لمخزن كبير جدا" فتح حديثا" ، أن يستفيدوا من الحيز ليفتحوا فيه واجهات عرضٍ، وقد ذهب بهم الأمر أن حفروا وسط ساحة حوضا" كان البط يسبح فيه أحيانا" ، كما كانت الشمس تتعلق على شكل كرة ؛ كل ذلك ، من تنظيم المكان هذا الذي يعتبر أقرب إلى التساهل ، قد ترك مكانه لواقع مختلف لا أعرف إن كان هذا الواقع مستعدا" أن يجري معي نوعا" من الاتفاق على سكن مقبول . لم تعد بناية سكني هي المعنية ، ولكن نوعا" من الضباب ارتفع يمتد بيني وبين كتل كثيرة أخرى من الضباب أخذت كلها باندفاع واحد الحيز المتبقي لها . كان هذا الضباب قد أضيء في مواضع ببقع قلت كثافتها ، وبانعكاسات احتفظت بآثار خفيفة لبعض الزوايا ، وكان خلفها أيضا" ، في كثافة أخرى ، يتحرك نوع من الأسماك و كذلك عصافير بحر منفصل ، وأناس ، وجيراني ، وسكان مدينة من ضباب . وإذا ما دنوت قريبا" جدا" رأيت كيف تخلق الشمس ما كان بناية ، ملايين جزئيات

جدران ؛ كانت هــذه المــادة المعلقــة تستطيع ، تحـت أصـابعي وناظري ، أن تتشكل ثانيــة بكثافــة تزيــد يســرا" ضئيــلا" ، كمـا تستطيع أن تتبسـط ، وأن تقبـل مؤقتـا" أن تتجمـع فـي الأبعـاد الثلاثة، وأن تشبه مــن جديـد ، علـى عـدة سـنتمترات مكعبــة ، شكلا" أوليا" لبيت . شعرت بحرارة الشـمس علـى جلـدي ، علـى ضباب الجلد الذي كان يعوم في أضيق حقــل رؤيــة لــي ؛ لمسـت وجهي فكان في منتهى الرقــة ، وقـد زرت عليـه أدق المسـاحيق التجميلية ؛ أحسست أنه قد بـدأ يقسـو رويـدا" رويـدا" ، والـذرات تمركزت على الجلد كمـا يتكـاثف البخـار علـى الزجـاج ليشـكل طبقة ندية . كنت أرى زاوية أنفـي تظـهر منشـطرة مـن جديـد ، وأعلى وجنتيّ يقطر قطرات صغـيرة ، ورمـوش عينـيّ تضـرب كما العوارض الخشبية ، وقـوس حـاجبيّ غـير الواضـح يمحـو الحدود بين ما نرى وبين أنفسنا . ثم فتر انتبـاهي ، فكنـت حينئـذٍ، أنا بكاملي ، أنحلّ ممتزجة بغمائم أخـرى . كـانت الشـمس تجعـل العالم يتبخر ، فرحت أعوم . وكانت المدينــة تتطـور وفـق قوانيـن كيمياء رفيعة ، حيث تتحول المــادة مـن الصلـب إلـى الغـازي ، متلافية حالة السيولة كي تتفتت شيئا" فشـيئا" وتـهرب علـى شـكل غمامة . كنت جالسة على حافة بـئر مـن السـحاب ، فـي غمـرة ضباب المدينة ، قرب وسط ساحة محتملة ، أنظر ، فـوق ميـاه لـم تعد موجودة ، إلى غمائم كفيات الأقدام تشكل بطـا" مناسـبا" جـدا" .

في الدقيقة التاليــة ، كـان ثلاثـة أشـخاص ملتفيـن حولـي يسألونني ، وعيونهم ترشح حنانا"، إن كنـت حـاملا" ، ولـم أنجـح في إبعادهم إلاّ إثر سرعة خـاطر غريبـة (ولكـن لـم أكـن فـي

حياتي البتة أكثر صحوا" مــن الدقــائق التــي كــانت تتلقفنــي) ، أعلنت لهم بهدوء أن زوجي قد مــات ، ممــا نــزع عــن وجوهــهم ابتسامة الملاك التي كانت تعدني بالجنة : وبكـــل وقــار أوقفونــي ، وصافحوني بقوة ، فاستطعت ، وقد امتـــلأت عينــاي بـذرات نـور ساحرة ، أن أتجه وحدي وبخط مسـتقيم إلـى حـد مـا نحـو بـاب المخزن الكبير الآلي ، كان الناس كلهم يبتعـدون عـن طريقـي .

كان الزنجي الصغـير الـذي اسـتولى بـالقوة علـى عربـة مشترياتي يتقدمني مبتسما" . فاســترجعت أفكـاري عـن الطعـام . كانت سيدة ، في جناح الأطعمة الطازجـــة ، تشـيد بمـيزات اللبـن التي 'تظهر إلى الخارج ما لا نراه من الداخـل . ذقنـا اللبـن ، أنـا والزنجي ، ونظر كل منا إلى الآخـــر ، مـا زال هـو أزرق اللـون عبثا" ، وبقيت أنـا شـاحبة كليـا" . كـانت السـيدة تفسـر قائلـة : يستغرق ذلك سنوات كثيرة ، يجب القيــام بفـترات عــلاج يتخللـها فواصل زمنية منتظمة ، وهذا يغسل داخلكـم بكاملـه حينئـذ يتـألق الجلد ، ويصير الإنسان قويا" ، فيشـعر بأنـه واقـف علـى الأرض بأكملها ، وتغـوص جـذور الأشـجار فيكـم وتصعـد إلـى النـور مكونات الأوراق ، فتجحف الأنهار المعادن التـــي تحتــاجون إليــها، العشب ينبـــت ، والأبقــار ترعــى ، والنــاس يصنعــون منتجـات الحليب هـــذه ويأكلونــها ، درب التبانــة يسـري فـي عروقكـم ، فتشعرون بالكواكب تدور في داخلكـم ، وبـالمجرات تتلاقـى وسـط بطونكم ، وبالعالم الكبير يؤثر على العــالم الصغـير ويقلـب الزمـن سيره . قالت السيدة : انظـــروا ، وشـدت جلـد خديـها فـي قعـر يديها، توقف الـــدم ، وابتسـمت لنـا شـفتاها المتباعدتـان كشـفتي

المهرج الذي يرسم طلاء وجهه الأبيض دموعا" ؛ كانت تقول : انظروا ، هكذا نصغر عشر سنين .

نظرت إلى الزنجي الصغير فأجابني بنظره ، ولكنني لا أعرف إن كان يرى ما كنت أرى شخصيا" (إن كان يراني أنا، قبل عشرة أعوام ، متصلبة وفي فترة ما قبل الزواج مباشرة ، أفضل ألاّ أفكر بذلك) ، إن كان يرى تناسق ما كنت أنا أرى : هو ، صغير جدا"، يعوم في السواد ، وقد وصل كرائد فضاء على سلك مفتول وهو يضخ الدماء بصلابة ، وقد برزت عروقه وأمعاؤه ، مجتمعة كما تتراكم الأنقليس (الثعابين السمكية) التي تضرب بوحشية تحت جلد زقيق ، ولها زرا عينين مغشاتين بطبقة شفافة وقد شرعتا بوصف حركات الأحلام (الأحلام وكلها تأرجح ، وترنح وهدير ، و بريق أحمر ، وطعم سائل ، ونبضات وتقلص الأعضاء ، للذين لم يولدوا بعد) . اشتريت ثماني عشرة كأسا" من اللبن ودسست كثيرا" منها في جيوب الزنجي . كنا نتابع جولتنا (قهوة ، سكر وقطع حلوى صغيرة ، رحنا نلتهم ، مختبئين بين طبقين من الفواكه ، نوعا"من الحلوى المصنوعة من البسكويت والمربى) ، حين اضطررنا أن نبطئ بسبب تجمع حول سيدة أخرى كانت تمدح سلعة أخرى ، لم يكن هناك ما يقنع فأشتريه لأعد العشاء لزوجي ، ثم راوحنا في أماكننا بعض الوقت ، نشمخ بأنوفنا ، وعيوننا تنظر إلى مصابيح النيون ، وآذاننا شاردة من الموسيقى و زائغة من الوعود . ثمة رعشة معدنية خفيفة ، انبعثت من يدي الزنجي الممسكتين قضبان العربة ، قد أتاحت لي أن أدرك أنني ، هذه

المرة ، ربما لم أكن أرى وحدي ما كنت أراه . كان شيء ما يولد في إشعاع لمبات النيون المتردد . فيومض وفق إيقاعها ، وكله حيوية ونشاط ، وكان من العسير ألاَّ ترف أهدابي ؛ ومع ذلك جهدت أن أثبت بنظري ما كان يفلت منا هكذا ، أن أعلق بدبابيس مثل فراشة ضخمة من فراشات الليل هذا الشيء المترنح الذي كان يتبدد بشكل فوضوي . كان طنين النيون يطغي على الموسيقى ، حتى يظنَّ أن الضجيج كان يأتي ، ليس من انتشار الغاز الذي يعبأ في هذه الأنابيب ، ولكن مما كان يعكر الرؤية على هذا النحو . كان لون الزنجي الشاب قد تحول إلى أزرق فاتح ، أدخل قطعة أخيرة من الحلوى في فمه وجرني من ذراعي بقوة حبَّار عملاق ، أحدثت العربة ضجيج منقلة مدرجة فابتعدنا مسرعَين .

حين وقفنا أمام جناح الأطعمة المتجمدة ، وقد امتلأت العربة ، وأنهيت معظم مشترياتي ، تكررت الظاهرة وسط البخار الجليدي الذي كان يرتفع من حوض بلغت درجته ثماني عشرة تحت الصفر ، أبدى الزنجي الشاب أسفه لأنه لا يستطيع أن يبقى معي أكثر من ذلك ، وانتظر مضطربا" أن أعطيه قطعة نقدية أجرة له على جره للعربة ؛ وحين تلامست أيدينا رأيت شيئا" باغتني ظهوره ، كان مؤلفا" من الريش والحراشف ، تعرفت فيه على تعويذة من الجنوب الشاسع[1] . شكرت عن بعد الزنجي الذي كان قد ابتعد مسرعا" ، ترددت لحظة بين الفائدة الإتنولوجية (أي المتعلقة بالأجناس البشرية ، وأصولها وأخلاقها) والسحر

---

[1] أي المناطق شبه الخالية من أميركا الجنوبية

الفني ، ونفوري من هـذه الترهـات ، فـاخترت الحـل العقلانـي : دسست التعويذة تحت كيس مـن البزاليـاء ، لتتجمـد هنـاك حتـى يبطل مفعولها . أثنـاء ذلـك ، راحـت الظـاهرة تتضخـم . كـان الحوض يرسل دخانا" وفي هذا الدخان كان 'يستشـف جسـم رقيـق جدا" ، عديم الشكل عائمـا" ، إلاً أن لـه نوعـا" مـن الإرادة لأنـه كان يركد 'ملحا" هنا ويكاد ألاً 'يرى ولكن ، إذا نظرنـا مـن جديـد بانحراف قليلا" (إما لأن الشيء قد شـعر بالثقـة هكـذا فـأحس أن مراقبته قـد قلـت ، أو أن شـبكية العيـن وقـد تـأثرت طويـلا" ، احتاجت أن تتنفس علي طريقتها بعيـدا") فإنـه يظـهر بكـل قـواه على حدود حقل رؤيتي . كانت أسناني تصطك ، مـن الـبرد ومـن التركيز أكثر من المفاجأة ، طالما كنـت أسـعى بـدوري جـاهدة ، وأنا أخبط رجليً هنا ، أن أمـيزه بشـكل أفضـل . كـان البخـار ، وقد ثقبته ذرات الزجـاج الصـافي ، يتمـدد فـي هـواء المخـزن الدافئ ويتعكر مجددا" : كان هناك نوعان مـن الضبـاب يتداخـلان فيتكاثفان في بعـض الأمـاكن أو يتلاشـيان فـي أمـاكن أخـرى ، وهما يطلقان علـى شـكل فـواق هـذا التكثيـف الأغـبر ، وهـذه الحركة الدائرية ، المتقاربة ، والمـهتزة : كـان شـيء مـا يخفـق فوق الحوض الذي بلغت درجته ثماني عشرة تحـت الصفـر ، ولـم يكن أحد يعيره أدنى اهتمام . توصلت مـن فـرط التركـيز إلـى أن أفتح (بالأحرى : ذهنيا") نوعا" من نـافذة ، أو شـقا" حيـث خفـق ستار برفق ، ثمة شيء أخذ شكلا" حسـيا" أكـثر عذوبـة ، حـيزا" من الفضاء ، خفيفـا" ، هاربـا" ينسـحب ؛ بسـطت يـدي فداعـب برفق أصابعي ، وضغط بحب على راحـة يـدي .

حين وصلت إلــــى الصنـــدوق وقـــد امتــلأت عربتـــي حتـــى أعلاها ، اكتشفت ، علـــى ورقـــة الحســـاب التـــي أعطتنـــي إياهـــا المضيفة ، أن رصيدي مـــا زال كبـــيرا" ، ومرتفعـــا" بشـــكل يثـــير القلق حتى أني توجهت فورا" (وقد عبأت مشـــترياتي ، كمـــا تفعـــل سيدة من المجتمع الراقي وبـــدون تـــردد ، فـــي صنـــدوق تاكســـي) إلي مكتب زوجـــي .

(٨)

كنت قد تركت جهاز الحاسب مضاء" ، إثـــر مــروري المــرة الأولى ، كما تركت النافذة مفتوحة ، وبدا مكتب زوجـــي فـــي حالـــة الإهمال ذاتها والفراغ عينه اللذيـــن كـــانت فيـــهما إضبارتـــه فـــي مخفر الشرطة ، وربما كما كانت حالتـــه هـــو ذاتـــه ، تائـــها" فـــي مكان ما من السكاك (الـــهواء فـــي الجـــزء الأعلـــى مـــن الغـــلاف الجوي)١ (آمل على الأقل أن يكـــون هـــو أيضـــا" هنـــاك معذبـــا" يعاني ما أعانيـــه) . بـــدأت ذاك اليـــوم ، بعـــد الظـــهر ، بعـــد أن راجعت سجلاته واكتشفت أني ثرية ، أحدد الوضـــع الـــذي أنـــا فيـــه لأحلل عناصره ، وقد جلست فـــي مقعـــده ، أستنشـــق الـــهواء ذاتـــه المليء بالغبار الذي استنشقه هنا ، أداعب فـــأرة الحاســـب الملطخـــة ببصماته ، واضعة قدمـــيَّ علـــى صنـــدوق القمامـــة حيـــث كـــانت لاتزال تتعفن بقايا شطائره ، أمـــامي النـــافذة التـــي أرى منـــها مـــا كان يرى كل يوم ، الشارع الغبي والحمام الذي لاهـــدف لـــه . لـــم أعد إلى المكتب في الأيـــام التاليـــة إلاَّ لأقـــاوم الكآبـــة ، ولأعيـــش قليلا"في جوه ؛ كنت أجيب أحيانا" على نداءات الـــهاتف ، آخـــذ لـــه مواعيد لن يذهب إليها ، أصنف إعلانـــات بـــلا نتيجـــة ، لـــم يكـــن لذلك أية أهمية ، لأن في غيابـــه وبكـــل بســـاطة ، تتتـــابع صفقـــات البيع ، وتستمر عمليـــات فـــرز الأراضـــي فـــي منطقـــة الحـــدود ، وتتوسع عقود الشراء ، وتغذي العمـــولات بشـــكل مدهـــش حســـابي المصرفي ؛ لم يكن لكل هذه العمليات قطعـــا" مـــن مرجـــع إلاَّ علـــى شاشة الحاسب، ولكنها كانت تشير بشكل واقعـــي صـــرف ، تحـــت

تعديلات وهمية في النقاط الضوئيـــة للشاشـــة ، أن زوجـــي ربمـــا ، من مكان ما ، (أو ثمة ملاك حارس) مـــا زال يفكـــر فـــيَّ . كنـــت ألعب أحيانا" ، على مواقع مختلفـــة ، فـــي فضـــاءات مفترضـــة قـــد قطعها هو لأن اسمه كـــان مســـجلا" فيـــها ؛ علـــى شـــبكات زمنيـــة مختلفة أجريت محادثات طويلة مـــع أنـــاس كثـــيرين ، كـــل هـــؤلاء الناس لن أراهم مطلقا" ولكنـــــهم كـــانوا يؤنســـون وحشـــتي ؛ وفـــي غضون ذلك ، في الفترات الزمنية التي يتوقـــف تسلســـل الاتصـــال، بدأت كتابة قصة انتظاري . كنت أحـــاول هكـــذا ، وعلبـــة الســـجائر في الدرج دائما" ، أن أمضي الوقـــت وأنـــا ألمـــس مصـــف أحـــرف الحاســـب ، وأن أتحمـــل الوضـــع الراهـــن ، وربمـــا اســـتطعت أن أوضح أفكاري ، وإن رحت أشـــك ســـريعا" بمقـــدرة قصـــة كـــهذه على أن تحدث تغيرا" فـــي هـــذا المنحـــى . وبـــالفعل كـــانت هـــذه القصة تنشطر . لم أكن أكتب بالسرعة نفسها التـــي كنـــت أعيـــش ، ومع ذلك كانت هذه الحياة بطيئة . وفي التـــأخير المـــتراكم ، الـــذي بدا يقلد التفكك الزمني الذي كنت أعاني منه بعنـــف أحيانـــا" (حيـــن تلوح الثانية الآتية بعيدة عـــن متنـــاولي ، منفصلـــة عـــن جســـمي : بمجرد أن يحل الظلام ، حين تنطفـــئ الســـيجارة ، عندمـــا يـــتركني الشخص الصامت الذي تفصله عني ثمـــاني منـــاطق زمنيـــة ليذهـــب إلى عملـــه ، حيـــن أضطـــر متضايقـــة أن أنـــزل إلـــى مراحيـــض الطابق الأرضي ، كي أشعر فجأة ، وأنـــا أصعـــد الـــدرج ثانيـــة ، كما في حركة معاكسة بتدفق مد القلق ليغمرني بثقلـــه) ، فـــي هـــذا التأخير كنت أتعرف على الزمن الذي أعيشـــه بشـــكل أفضـــل ممـــا لو كنت قد استطعت كتابتـــه دون تبـــاعد . فبـــدلا" مـــن أن أفحـــص بدقة تجربتي ، فإن كتابتها كانت ترجعها إليَّ كـــالكرة فـــي وجـــهي،

نقدية أجرة له على جره للعربـــة ؛ وحيــن تلامســت أيدينــا رأيــت شيئا" باغتني ظـــهوره ، كــان مؤلفــا" مــن الريــش والحراشــف ، تعرفت فيه على تعويـــذة مــن الجنــوب الشاســع (١) أي المنــاطق شبه الخالية من أميركا الجنوبية . شكرت عن بعـــد الزنجـــي الـــذي كان قد ابتعد مسرعا" ، تـــرددت لحظـــة بيــن الفــائدة الإتنولوجيــة (أي المتعلقة بالأجناس البشـــرية ، وأصولـــها وأخلاقـــها) والســحر الفني ، ونفوري من هـــذه الترهـــات ، فـــاخترت الحــل العقلانـــي : دسست التعويذة تحت كيس مـــن البزاليـــاء ، لتتجمـــد هنـــاك حتـــى يبطل مفعولها . أثنـــاء ذلـــك ، راحـــت الظـــاهرة تتضخـــم . كـــان الحوض يرسل دخانا" وفي هذا الدخان كان 'يستشـــف جســم رقيــق جدا" ، عديم الشكل عائمـــا" ، إلا أن لـــه نوعـــا" مـــن الإرادة لأنـــه كان يركد 'ملحا" هنا ويكاد ألا 'يرى ولكن ، إذا نظرنـــا مـــن جديــد بانحراف قليلا" (إما لأن الشيء قد شـــعر بالثقـــة هكـــذا فـــأحس أن مراقبته قـــد قلـــت ، أو أن شـــبكية العيـــن وقـــد تـــأثرت طويـــلا" ، احتاجت أن تتنفس علي طريقتها بعيـــدا") فإنـــه يظـــهر بكـــل قـــواه على حدود حقل رؤيتي . كانت أسناني تصطك ، مـــن الـــبرد ومـــن التركيز أكثر من المفاجأة ، طالما كنـــت أســعى بـــدوري جـــاهدة ، وأنا أخبط رجلي هنا ، أن أمـــيزه بشـــكل أفضـــل . كـــان البخـــار ، وقد ثقبته ذرات الزجـــاج الصـــافي ، يتمـــدد فـــي هـــواء المخـــزن الدافئ ويتعكر مجددا" : كان هناك نوعان مـــن الضبـــاب يتداخـــلان فيتكاثفان في بعـــض الأمـــاكن أو يتلاشـــيان فـــي أمـــاكن أخـــرى ، وهما يطلقان علـــى شـــكل فـــواق هـــذا التكثيـــف الأغـــبر ، وهـــذه الحركة الدائرية ، المتقاربة ، والمـــهتزة : كـــان شـــيء مـــا يخفـــق

إن ما ازداد هكـــذا ، فـأصبح أكـثر واقعيـة أيضـا" ، لـهو الانفكاك . هل ذهبت في ذاك اليوم ، أم فـي يـوم آخـر ، لزيـارة حماتي لأحاول أن أكوّن معها فكرة في المدينـة التـي كـانت تـزداد غموضا" ، عن المسيرات التي قد سـلكها ابنـها زوجـي ؟ تصفحنـا معا" دفتر صور طفولته. كان كـل شـيء يبـدو طبيعيـا" وناعمـا" أملس . كانت حماتي ترتجف بـالقرب منـي ، تقلـب الصفحـات ، وقد نحل جسمها تحت برنس حمام لـم تعـد تخلعـه عنـها ، وفـي قدميها خفان ضخمان يأكلان ما بقي مـن عظامـها وكعبـي قدميـها . لا بد أن حماتي وقد هاجرت ابنتـها منـذ زمـن طويـل ، ومـات زوجها ،، وكذلك ابنها ، كانت تتساءل مـاذا أفعـل بـالقرب منـها ، وقد أكون مصدر مصائبها كافة ، قد أكون أحدا" يتبعـها منـذ زمـن طويل ويحدث في حياتها التصدعـات والمصـائب ، بسـبب عينـه الشريرة التي تصيبها دائما" . وصلنا إلـى دفـتر صـور زواجنـا . رحت أتساءل وأنا أقلـب الصفحـات التـي ظـهرت فيـها وجـوه أحيطت بأطر وبدا لي أني لم أر قط هـذه الوجـوه ، وحيـث أخـذ شكلي ، الذي نادرا" ما لمحتـه ، مظـهرا" شـمعيا" يمـاثل مظـهر عارضات الأزياء وحيـث كـان زوجـي يحـدق مباشـرة بنظـرة غريبة ، منوّمة مغنطيسيا" وزائغة بعيـدا" (كـأن مـا يحـدق فيـه موجود خلفي دائما" ينظر إلى زوجي) ، كنـت أتسـاءل أي شـيء يشبه اليوم دفتر صور زواج أمي ، إن لم يكـن يمـاثل بدقـة دفـتر الصور الذي أراه هنا ، فإذا مـا جمعناهمـا ، حصلنـا علـى دفـتر صور زواج كامل وفرح . كانت حماتي تهتز بـالقرب منـي كأنـها ورقة 'تركت في مهب الريح ، لم أجرؤ أن أنظـر إليـها مواجهـة، بدا لي أن وجهها في كل لحظة كـانت تحملـه عاصفـة معـها وأن

جسمها قد شوهته الزوابع ؛ في زاوية شـــبكية عينـــي ظننـــت أنـــي أرى برنس حمامها يرتفـــع عـــن لحمـــها الأبيـــض ويكشـــف عـــن نهديها ، وعن بطنها ، وعـــن جلـــد ذراعيـــها يتدفـــق علـــى شـــكل موجات مسطحة . فسواء من الوجه ، أم مـــن الجـــانب ، لـــم أكـــن أتعرف على شيء ، كان الخـــدان مشـــدودين ، والعينـــان غـــائرتين وما تبقى قد ُمضغ كأنه دوامـــة أوراق ، مـــن لـــب نبـــاتي ، إلـــى عروق النبات وخضابه المفتتة والمداســـة . ســـمعتها تقـــول : كـــان زواجا" رائعا" ؛ فاشتهيت أن أرى فمـــها ، هـــذا الفـــم مـــن الســـماد حيث بدت الكلمات تخرج منه ، من بيـــن شـــقوق أخـــرى ، ثقـــوب أخرى امتلأت بالأوراق الميتة ؛ ولكني قفزت علـــى الغصـــن الـــذي ُمد لي والتقينا كلانا نغني فـــي الأعـــالي ، كنـــا قرقفتيـــن هزيلتين[١] تتعرف في الأخرى ، تحت الريش الشـــعث ، علـــى طـــائر مـــألوف كما ُيفترض . أخيرا" قامت حماتي لتعـــد القـــهوة ، فبقيـــت وحـــدي مع الصور ، والمفروشات ، والســـتائر، وحصـــير عطلاتـــها التـــي أمضتها في الجزر والأقنعة التي تعود إلـــى فـــترة اهتمامـــها بـــالفن الأفريقي، أحاول أن أسترجع هنا ، وأنـــا أتلمـــس وبـــدون زوجـــي ، نقاط ارتكاز لي ، وقد طوقتني أشياء أعـــرف غيبـــا" ســـطحها الـــذي أزيل الغبار عنه ، ولكنها بقيت غريبـــة عنـــي .

حين رأتني حماتي في غرفـــة الاســـتقبال ، وهـــي عـــائدة تحمل فنجانين ، قرأت على وجهـــها الـــذي اســـتعاد إلـــى حـــد مـــا تعبيره أنها قبلت من جديـــد معنـــى هـــذه الزيـــارة ؛ ولكـــن ما أن جلست على وسادة مـــن الجلـــد

---

[١] نوع من العصافير الدورية

الأفريقي، ترافقها الحركات المنسجمة مـــع دورهــا الــذي أحســنت فهمه ، حتى عادت موجة لتنساب ثانيـــة تحـت وجهــها ، فزاغــت عيناها ، وراح شيء ما يتعرج في نظرتــها وبـدا كأنــه يطـن فــي أذنيها ؛ كنت أظن في كل لحظـــة أنــها ســتقف ملوحــة بذراعيــها غضبا" كما لو كـــانت تتخلـص مـن حشـرة . أسـرعت بشـرب قهوتي . أخيرا" ثبتت نظرها عليَّ ، لا شك أنـــها لاحظـت عجلتـي لأنها بسطت نحوي يدها بحركة غريبـــة ، مطمئنـة بقـدر مـا هـي مجاملة ؛ هكذا أمام مزق من جمل أتفوه بـــها (قطعتـا سـكر مـن فضلك ، كم الفناجين جميلـــة ، آخـر رحلـة لـك إلـى الجـزر) ، حتى إنها كـــانت تبـدو منشـرحة لأنــها تسـتطيع (بسـرعة) أن تستجمع ذاتها تحت شكل نــافع ، ومقبـول ، وثميـن لـهذه الضيفـة المفاجئة التي تدعي أنها تعرف ابنها حق المعرفـــة . كـانت أمـي ، إثر اندفاع شخصي بحت ، قد اتصلـت بـها هاتفيـا" لتصـوغ لــها هذا الاختفـــاء الــذي لـم نكـن نعـرف أن نتحـدث عنــه ؛ أمـي الشجاعة، التي تستطيع أن تتخذ قـــرارات صادقــة بقـدر مـا هـي مدمرة، وكانت حماتي تســميها : أمــك ، مشـيرة بـهذا التعبـير المألوف ظاهريا" إلى كيانٍ عجيبٍ أتى يدمــر مـا تبقـى فيــها مـن صلابة . ففي نظرتها الواهية كنتُ أستشــف أثـر الأدويـة المهدئـة للأعصاب ، التي وصفها لها على عجـــل طبيبــها غـير المختـص وكأنه يثبت لاصقــا" ســدود عقلــها وحواجـزه ؛ ولكنـي تعرفـت كذلك على الأثر الذي تركــه فــي عينــها هجـوم الأشـباح ، هـذا العجز عن تثبيت البصر (أكانت تخشـــى أن تشـاهدهم أم ترغـب في أن تراهم في كل مكان عائدين ، مثـل شـرارات العيـن التـي ، ما إن يطفـئ النـور ، فـي الليـل ، حتـى تتابع رقصـها علـى

القرنية). في أي شيء أخفقت ، في أية مهمة أخطأت ، أية مرحلة أهملت ، أية كلمة جارحة تركت ذاتها تقولها ، وأية كلمة لطيفة لم تقل ، لقد كان مشاغبا" ، متمسخرا" ، ولكنه كان لطيفا" جدا"، كنت جالسة أمام حماتي أراقب ما يرقص تحت شفتيها وفي نظرتها ، مما كان يجعلها تقلب رأسها بعنف إلى الوراء تبحث عن هواء تستنشقه : كان هذا خطأنا المشترك ، الثنائي الذي غنيناه على الغصن ، أننا لم نعرف أن نحتفظ بمن معنا ، هي بابنها وأنا بزوجي .

نجحت أن أدرك أمي هاتفيا" ، بين موعدين وجلستي رياضة لا أعرف من أي نوع ، واتفقنا أن ألاقيها حين الخروج من المكتب لأرافقها إلى الحمام الشرقي . كانت جاكلين قد كلمتني هاتفيا" الليلة السابقة ، هناك حتما" أحد مسؤول ، لا شيء يحدث بدون سبب : كانت صديقتي تتهمني بالسلبية وبالقدرية . وأظهرت استعدادها ، وقد وضعت أولادها في دار الحضانة ورجلها في المطبخ ، أن تتكفل بالموضوع ، أن تدق الأبواب ، فهي تعرف شخصا" يستطيع أن يجعل المسؤولين يهتمون بالإضبارة . كان عليّ بدون شك أن أتصرف قبل أن تبادر ، مثل ما تفعل أمي ، بعمليات قد تكون مفيدة ولكن فيها مجازفة؛ وخاصة أن جاكلين (جاكلين ، الشاهدة على زواجي ، هي التي، تحت بريق أجهزة التصوير ، وسط رائحة الورود ، قد وقعت على نسخ العقد) ، من كثرة ما كررت < زوجك > ، لم تكن 'تظهر إلاّ اهتماما" بسيطا" على ما يبدو وهو أن تضع ثانية وجها" على ما اختفى بهذا التعبير ، وكأنها أسلمته إلى ذكرى

غامضة : إنها كيان قد عاش معـــي ردحـا" مـن الزمـن ، دون أن يعطيني مطلقا" طفلا" ، وأنها لم تعرفه حق المعرفـة ، غارقـا" فـي فعاليات كانت غريبة عليها . إلاً أنه ، مـن وجهـة نظـري (كيـف البوح بذلك ؟) ، علينا ألا نثير غبارا" كثيرا" حـول هـذا الاختفـاء؛ وأن ندع الأشياء تأتي من تلقـاء ذاتـها ، أن نطـوي الموضـوع ؛ فتتضـح الرؤيـة ، و'تحـل العقـد ، وتتفـك جاذبيـات التمغنـط المرعبة: كان عليَّ أن أصبر وأنتظـر عـاجزة عـن القيـام بـأي عمل ، كما الحال في التخدير ، حينئذٍ مـن تـأثير الراحـة يتمـزق الضباب ، وتنبثق إحدى الذكريات من رؤية شـيء لا أهميـة لـه ، فيرجع شيء ما من مفرق طريق ، أو من تقـاطع طـرقٍ .

كنت أمشي ، و كانت الشوارع غائمـة ، خريفيـة ، رطبـة ؛ كان عليَّ أن أبذل جهدا" لأتذكر أننا فـي الربيـع ، بـدت الفصـول تقطع حدود الأيام ، وتخلط اتجاهاتها للحصول علـى تتـابع تشـرق الشمس فيه وتغيب في منـاخ ممـتزج ، حيـث تختصـر الأزمنـة بحلقة مؤلفة من أربع وعشرين ساعة . كنت أسـمع وقـع خطواتـي من بعيد ، تخفـف صوتـها حفـر المـاء الموحلـة ، كمـا كـانت خطواتي تطرش الماء وتنعكس تحت سـماء أثقلتـها الغيـوم . كـان أحد يلهو بدق كعبي حذائه وفق إيقاع مشيتي ، يختبـئ عنـد زوايـا الشـوارع ويـذوب فـي الأصـداء . كـانت الشـوارع تـهتز ، والموجات تتجسم فتظهر علـى شـكل أعمـدة ظـلال فـي طـرف الشوارع العريضة ، وتتسلق الجدران لتختفي فـي الغيـوم ؛ كـانت الشوارع الصاخبة بالرنين لا تؤدي إلاً إلى أطـراف حلبـة شـفافة ، وتضطرني أن أنحـرف بـلا انقطـاع . كنـت أرى ذاتـي دون أن

أستطيع اللحاق بها: شخصا" صغير القامة بالألوان ، يمشي ، فاقد الوعي تماما" في شوارع 'قطّعت متماثلة ، في قعر فقاعة بلاستيكية قد يهزّها قريبا" زلزال بلا أضرار ، فترى هذه الفقاعة حينئذٍ زوابع ثلجية تهب لأن يد سائح ضخمة تهزها ؛ كما كنت ، وقد فتحت مظلتي ومددت يدي تحت سماء حائرة ، إحدى هذه الدمى المصنوعة من مادة غريبة ، غبشاء و دبقة تنقلب إلى اللون الأحمر حين يكون الطقس جميلا" ، وإلى الأزرق حين تمطر السماء ، وتمر بألوان غريبة حين يكون الجو متقلبا" بين الحالتين . إذا كان هناك أحد في مكان ما ينظر إليّ ويواصل التفكير فيّ ، أفلا تستمر عروقي تنبض ، وأحتفظ بوجود أكثر من مجرد تذكار وضع على رف وترك للزمن ، بين تمثال الراقصة المرصع بالصدف ، والجوزة المحفورة الآتية من الجزر ، وتميمة الزنجي؟

أجبت أمي التي قلقت من مظهر وجنتيَّ اللتين كانتا ورقا" ممضوغا" بقولي : ليست الأحوال على ما يرام . استطردت تقول وهي تجرني إلى داخل سيارتها : وأنا كذلك ، وبما أنها كانت تدور المحرك إلى الوراء فلقد لخصت لي احتقارها النهائي لهذه الحياة ، ولهذه المهنة ، ولهؤلاء الناس ، وأعلمتني قرارها : كانت قد حجزت مكانا" للسفر بالباخرة . في الحمام ، كانت أمي وهي تتعرق من السخط ومن المشاريع تفرك جسمها بقفاز من الشعر ، وتقول إن الكيل قد طفح ، وإن الطقس موبوء، والمكان ضيق ، والمدينة خانقة ، والمكتب نتن فاسد ، وزملائها قساة متشددين ، والأحوال الجوية كئيبة سيئة ،

والأمواج في منتهى العنف ، فشعرت بأني أنام بهدوء ، يراودني شك طفولي ، أو ربما أحلم ، يتصاعد وسط البخار ، وهو أن أمي كانت تسافر لمجرد لقاء أبي ، بعد عشرين عاما" على طلاقهما . سألتني الزنجية الضخمة التي هي في الستينات من العمر : أتريدين أن أدلك جسمك ؟ أسلمت ذاتي لها كلية ، ورأسي بين ذراعيَّها ، وقد انبطحت' فوق منشفة تنضح بزيت اللوز ، وكنت أرى ، فوق ساعدي ، وسط ضباب الشعر والجلد الساخن ، عبر كواكب من قطرات الماء المعلقة ، أمي تدهن جسمها بمعجون أخضر سميك ، كنا ، كلانا ، اعتبارا" من الأم إلى بنتها ، بطلات قناع مستعار من الملاط . كان جسمها ينشطر في ضوء زجاج الحمَّام ، وقد نحت في قشرة طين ، خمسون عاما" ورونق شجرة فتية مثمرة ، وخمس نبتات خضراء تلوح لي الآن . أغمضت عينيَّ من قوة قبضة الزنجية، وقد انفتحت كليتاي ، وانبسط قفصي الصدري كأن أضلاعي وقد انفصلت عن العمود الفقري و'دفعت خارجا" ، فجعلت عظام القفص تنبثق وكل ما انسحق تحتها ، فتحررت بطني ، وارتخى فخذاي ، وشعرت بثقل و بأن أوصالي تتفكك ، فينفرج فمي ، و تسبح أعضائي ، و يصمت دماغي .

حين فتحت عينيَّ ثانية ، كانت يدا الزنجية قد ازداد دورانهما كما زادت مرونتهما ، كانت تدعك بلمسات صغيرة وسريعة مناطق الجلد الدهنية ، كنت تحت رذاذ من المطر وأحسست أني أصعد ، أصعد ؛ كانت كتفاي المجنحتان بعشر أصابع ترفعني نحو القبة ، بعيدا" ، وكانت القباب تفصلني عن المدينة ؛ وبدا لي أني سأرفرف بلا هدف على زجاج الحمَّام

المتقطِّر ثم (وقد تفككت وصرت لزجة رخوة) ، سألتصق بالسقف وأسقط من جديد على شكل قطرات على باقي النسوة ، أنفذ كالزيت إلى كل مسمة من مسامهن وأنساب في ماء استحمامهن . عادت أمي من عشرة حمامات رش ذات درجات حرارة مختلفة ، وقد ’غسلت، و’فركت ، و’دلكت ، واحمرت؛ ولكني لم أستطع أن أتأملها طويلا" ، لأن الزنجية كانت قد ثبتتني في مصب نهديها كي تفك فقراتي الواحدة تلو الأخرى . كنت أسمع طقطقة وقرقرة ، فرحت أبحث عن الهواء ، كان جسمي منتشرا" ورائي وتوافق عضلاتي قد تفكك ، كنت عمياء، ’مذابة ، وأنفي مدسوس فوق عورة لها رائحة اللوز كما كل الثنايا هنا . إنهم بالرغم من كل شيء يعرفون كيف يعيشون ، قالت أمي وهي تشرب كأس شوكولاته اعتادت أن تشربها في حين التففت في مئزري محاولة أن أعيد تنظيم جزيئاتي ، هناك حيث ستذهب (لم تكن لي بعد الشجاعة لأطلب إيضاحات) ، في هذا العالم الذي انتقته حيث كانت تنشد الأمان ، والراحة و حتى الحب ، كان هناك قلة من الزنوج (محنطي الرؤوس ، آكلي لحوم البشر ، سارقات أطفال ، ملوثي الأنهار و سحرة يلحقون الأذى) : قلت ، يا أمي (وكان هذا يكفي أحيانا") . ولكن أمي ، حين أكون في حضرتها وحتى على الهاتف معها ، كانت تمارس عليَّ سلطتها بطريقة لا يمكن أن تكون إلاَّ فائقة الطبيعة . (إلاَّ إذا وجدت تفسيرا" أكثر اطمئنانا" ، أي سخيفا" ، لهذه الظاهرة التي لها قوة لامعقولة) . فكل ما كلفني في الماضي من جهد طويل في التعمق والفهم (بما فيه واقع الغياب الذي ’قطع بشكل جراحي) ؛ كل ما كسبته بنضال طويل في ما أطلقت عليه أسرتي ما يسمى بالحس السليم والحس المشترك ،

وبالذوق والخلق ، بالذكاء والقانون ، بـــالقوة وبالتـأني (أنـا التـي كنت أعرف بأي اقتلاع أحشاء دفعـت يوميـا" ثمـن رؤيـة الواقـع الحقيقية) ؛ فكل جـهودي ، وكـل ازدواجيـاتي ، وكـل أفكـاري التعاونية ، تجهض بلا وقف تنفيذ في حضـرة أمـي . فبعـد سـاعة ونصف معها ، شعرت بأني في السادسة من العمـر ، مـن السـهل أن أحسب أني كنت أضيع حوالي سنة كـل خمـس دقـائق ، ممـا كان محظورا علـيَّ تمامـا" أن أسـتمر علـى هـذا النحـو إلاَّ إذا أردت الفنـاء أو الشـيخوخة الجنينيـة ، أي ألاَّ أبقـىَ أكـثر مـن ساعتين برفقتها . في السيارة ، حين شـغلت المحـرك للسـير إلـى الأمام رأيت زوجـي يخـرج مـن الحمَّـام ، والبابـان العريضـان يصفقان وهما يدفعان البخـار حولـه ، كـان يرفـع ياقـة معطفـه ويستعد ليجابه برد الخارج الـذي لا يتفـق مـع الزمـن ، فابتلعـه الباب دفعة واحدة في عطاس البخـار ، صرخـت بـأمي : قفـي ! ولكنها أكدت لي جوابـا" علـى اسـتجدائي أننـي أقـول كلامـا" لا معنى له ، فلسنا في يوم مزدوج ، والرجال لليـوم التـالي .

لم أسـتطع أن أهـرب مـن السـيارة فـي الوقـت الملائـم فوجدت نفسي تائهة تماما" وبلـهاء أعـدو خلفـها علـى الشـاطئ (أمي الوحيدة بين كل من أعرف من البشـر التـي ، بعـد الخـروج من حمَّام شرقي وبعد شرب كـأس مـن الشـوكولاته ، لا تسـتهويها فكرة أن تندس فورا" فـي الفـراش). كـانت أمـي وهـي تبسـط ذراعيها وتتحـول إلـى نـورس تحدثنـي عـن رغباتـها ، وعـن قصص حبها ، وعن الصدفة التي لا وجود لـها ، وكنـت أنتظـر ، مستعدة لكل شيء ، مقطوعتها عن تمـاثل الرجـال ، حيـن التفتـت نحوي تقول ، وقد امتلأت باهتمام مفاجئ وقلـق ، بـأن الوقـت قـد

حان الآن لأبدأ حياتي من جديد : هل سأبقى أنتظـــــر ، مثــل أرملــة البحار المقيمة على حافة الجرف وقبعتـــــها فـــي مـــهب الريـــح ، أن يتفضل زوجها فيعود ، من المؤكـــد أنـــها لـــم تربنـــي علـــى هـــذا النحو، كما لم تربيني لأتزوج باكرا" على هـــذا الشـــكل ، ولا شـــيء مما حدث قد فاجأها كثيرا" . قلت : يا أمـــي . وليـــس خطابـــها هـــو الذي سحقني كثيرا" . لم أكن أستطيع أن أثبت صورتـــــها فـــي حقـــل رؤيتي ؛ لم أكن أتعرف عليها . كانت لا تـــزال تشـــرح لـــي بنـــبرة 'تقطع الأذن، أنها إذا ذهبت إلى أقـــاصي العـــالم فـــإني أبقـــى فـــي منتهى اللامبالاة (مرثية لا شيء فيها يثـــير الاهتمـــام ، وليـــس لـــها من قيمة إلا أنها تنوع حوارنا الـــذي لا ينتـــهي) ، وكنـــت أحـــاول جاهدة باستمرار أن أثبتـــها تحـــت عينـــيَّ . كـــانت تتقلـــص ؛ إنـــي أعرف آثار التعب على الرؤية ، وكـــان مـــن الطبيعـــي أن تتقلـــص في الخلف ، كما فعلت جاكلين منذ فـــترة ؛ كنـــت أســـتطيع بـــالطبع أن ألمسها بأصابعي ، لو لم يكن هذا التمـــاس يجعلنـــا كلينـــا نقفـــز ، ولكني كنت أرى أمامي شخصا" آخر يتكثـــف ، نحيـــلا" ، مغضنـــا" (وفق المعنى البدائي للكلمة) وأقل صلابـــة : نوعـــا" مـــن مكثـــف الأم ، مشروبا" أمويا" يرتجف وقد تخـــثر فـــي قـــارورة صغـــيرة ، وكان صوتها الخشن ، الـــذي يجـــهد عبثـــا" فـــي أن يـــرن كســـاق السنديان ، قد يجعلني أبتسم لو لم أرتجـــف حزنـــا" . كنـــت أســـتطيع أن أمسكها في باطن يدي وأحبسها فـــي علبـــة 'زينـــت بـــالصدف ، أو أحصرها في فقاعة بلاســـتيكية كـــي أســـقط الثلـــج ، بـــدوري ، وأثير الزلازل . لم يكن الأمر يتعلق بســـفرها (بقيـــت هـــذه الفكـــرة ثانوية ؛ لم 'تلفظ ولكنها متوقعة ، طالما عودتنـــي أمـــي علـــى هـــذا النوع من التحولات ، ومـــن زوايـــا متنـــافرة فـــي الرؤيـــة ، ومـــن

قرارات حاسمة جعلت مــن حياتــها وكذلــك مــن حيــاتي إلــى أن تدخل زوجي ، قطعـــة مخرمـــة بشــكل جنونـــي وكلـــها زخـــارف مثقوبة) ؛ ولكن من هذه الطاقة المعذبة ، التـــي تبـدو تندفــع منــها مثل البريق الأخير لتلك النجوم ذات الكثافة القصـــوى التـــي تشــكل وضعا" استثنائيا" ، والتي يحفر موتـــها ثقبـا" أســود فــي الكــون . كان صوتها يصلني آتيا" مـــن بعيـد جـدا" ، دون تــأثير فــوري ، دون رأي يستطيع من الآن فصـــاعدا" أن يمســني ، كــان صوتــها نهما ورخيما" وكأنه ينبعث من أحد أســود البحــر التــي كــانت قـد حطت هناك (كان هذا الأسد يصر من تصلـــب مفاصلــه التــي مــا زالت تختلج قليلا" من الزعنفـــة لتختلـــط ، وســط أمــواج جديـدة ، بأسود بحر أصغر منها لا تلبـــث أن تغرقـــها) . قلــت ثانيــة : يــا أمي ، ولكن لأبدأ جملة لم تكن ترد . أخـــذت أمــي تعيـد شـكواها عن منتهى لامبالاتي البنوية ، هل أرغب فـــي أن أعــرف عنوانـــها الجديد ، ساعة الرحيل ، اسم الباخرة ، ألم ألاحـــظ المنـــاخ المرهـــق الذي استقر هنا ، والسلبية ، والكآبة ، وأســـوأ الأمـــور؟ قلــت : يــا أمي ، وسمعت ذاتي أصيح أسفي على أبـــي ، وكــان ذلــك أغبــى مبادرة في هذا الظرف ، ولكنـــها كـــانت تلخــص تلخيصـــا" وافيــا" حالة الغضب الحزيـــن الـــذي أعيشـــه . إلاً أن أمــي لــم تــرد أن تجيبني . كانت تنظر إلى البحـــر ، وكــان مــن العسير علــيَّ أن أعرف إن كانت تقرأ فيه ماضيـــها ، أو تـــرى فيــه مســتقبلها . لــم تعد تراني وكنت أنا أراها ، منتصبـــة واقفـــة ، كأنـــها خــط أســود على الأفـــق المتســـاوي البيـــاض ، وقــد انطلــق شــعرها البنـــي المصبوغ ، ليختلط بلون السماء الرمادي . كـــانت طيـــور النـــورس تضحك ســـاخرة وهـــي تحلــق فــوق رؤوســنا وتــذرق بمــهارة ،

موسعة على شكل حلقات طيرانها البيضـــوي الشـكل الــذي كــان يحمل إلينا معه نتانة أوساخها ، وكانت الأمواج تطغـــي مــن حيــن إلى حين على صيحاتها ، وتمـــلأ لمــدة ثانيــة ضخامـــة الفضـــاء فتريحنا من فساحته ، كما لو لــم تكــن أدمغتنــا ذاتــها ، لاســتراحة قصيرة ، إلاً ضجيج الأمواج هذا الزائل والمجلجـــل . كــان يعسـر عليَّ دوما" أن أقدر درجة النسـيان النسـبية ، والتخديـر أو الفــراغ الذي قررته أمي الأيّم ، الغد يوم آخر، أن توقـــف زالـــق تعاسـتها ؛ ولكني أدركت فجأة وأنا أنظر إلى أمي التي تنظـــر إلـــى الأمـــواج ، أنها لا تهتم مـــن الآن فصـاعدا" لا بزوجـي ، ولا بمســتقبلي ، ولا بأطفالي الأموات ، ولا بحياتي الراشدة ولن تضـــع نفســها مكــاني ، كما لم أفعل ذلك أنا في الماضي ، ولم أضع نفســـي مكانـــها .

(٩)

نظمت أمي حفلة بمناسبة رحيلها ، ودعتني إليها مع من أرغب في اصطحابه ، وفهمت أنها تشجعني على الجلوس وحدي على شرفات المقاهي ، وعلى التنزه بمظهر أبدو فيه جذابة وتائهة ، وعلى الاهتمام برفاقي القدامى ، وعلى نشر إعلان ، إلى ما شابه ذلك ؛ ناديت جاكلين لتساعدني (جاكلين ، صديقتي التي لا تحتمل والغالية التي لا يمكن تقديرها بثمن ، الشخص الوحيد الذي أستطيع حقا" الاعتماد عليه ، فهي متصلبة الرأي تصلبا" أعمى فيما يخص الأمور التي تراها ثابتة ولن تعيد النظر فيها : هذا المظهر من الواقع الذي ينسجم مع الجزئيات المكعبة) . أحسست سريعا" أني لست على ما يرام . كان للعشاء موضوع: حفلة وداع بمناسبة رحيل والدتي ، أي ، بشكل مهذب ، نأمل من هذا الاجتماع الذي يبدو فرحا" ، تعزية مستحيلة ؛ فما إن أخذنا المشروبات المقبلة قبل الطعام حتى بدأت أنفعل . كانت أمي قصيرة القامة ، نحيلة ، حسنة الزينة ، جميلة حقا" ، تستلم الهدايا وتوزع القبلات ، وتلبس ثوبا" جديدا" يستبق التقليعات الشائعة ، وتدير الأحاديث ، وتقدم المشروبات ، وقد احمر وجهها إثر عناية بالجلد قامت بها بسرعة قبل ساعة من وصول المدعوين ؛ كانت فكرة رحيلها قد هدأتني كثيرا" ، بغتة ، حتى كدت أن أذوب من دموع التعزية والسلوى ، فتأثرت تأثرا" بالغا" لأنني أراها للمرة الأخيرة تجشمني مشهد الرقصات والقفزات التي طوال خمسٍ وعشرين سنة قد أذهلتني

وأصمتني . ولكن كان هنـــاك موضــوع آخـر ، يكمـن ، إلاّ انــه
'يسمع من حين إلى حين . كان الكـــل يعــرف أن صــهر المضيفـة
قد اختفى . خاصة وأن أمي قد دعـــت حمــاتي بدافــع مــن طيبـة
نفسها ؛ والموضوع الذي كان يـــهمس بــه أصبـح يقــال بصــوت
عالٍ . كانت حماتي ، مرتبكة ومهذبة ، تتمــالك تمامــا" كمــا وجـب
عليَّ أن أتمالك : كانت تحاول عبثــا" أن تشــارك فــي الحفلــة ، إلاّ
أن يدها راحت ترتجف وهــي تمسـك كـأس الشـمبانيا ، وعيناهــا
تلمعان بقوة في زوايا أجفانها المحمــرة ، كــانت تجيـب بمواربــة ،
كانت لائقة ، كئيبة ، ومرتبكة بانسجام . كنــت جالســة فــي زاويـة
الأريكة ، و جاكلين لا تفــارقني بنظراتــها ، وكنــت أرى مســبقا"،
وبتمام الوضوح (مثـــل تلـك السـاحرات الشـابات وقـد جعلتــهن
موهبتهن التي لم تصقل يغمى عليـــهن فــي أوقــات غـير ملائمـة
البتــة) ، مــا سيشــغل ســاحة المشــهد : أمــي ، وأصدقاءهـــا ،
وزملاءها وحماتي ، منتثرين علـــى البســاط المخضـب بدمائــهم ،
تحت صراخ جاكلين التي أنقذتــها مــن هــذا المصــير طفـرة مــن
طيبتي . كانت أمي تهمس في عنق أحــد المدعويــن ، لا شــك أنــها
كانت تتحدث عني ؛ كان ثوبها المصنــــوع مــن الســيليكون الأزرق
يطابق بدقة شكل جسمها ، كمــا أن حــداد حمــاتي الغــامض كــان
يلائم كلتيهما بمنتهى الروعة ، وبمنتـــهى الســيولة الأنيقــة ، حتــى
إن غرفــة الاســتقبال كلــها كــانت تطقطــق مــن مزيـــج رذاذ
حضورهما ، مثل حوض أســماك منمنــم ، حيــث مــن الممكــن أن
تؤدي فيه حيتان مائيتان وسط الفقاعات رقصـــات ثلاثيــة الحركــات
، كان ثوب أمي ، وحده ، قد يكفي ليجــذب انتبــاه الجميــع ؛ لسـت
أقول الآن إن أمي كانت تلبـس ثيابــا" مبالغــا" فــي أشــكالها وفــي

ألوانها أو إن هذه الثياب مثيرة جداً" بشكل فاضح بالنسبة إلى عمرها ؛ ولكن ، ما إن كانت تحرك أحد أهدابها حتى يبرق الثوب وقد قصته الأضواء : بدت قطعة من الثلج تشق السيليكون من كل صوب ، فاستعاد لونه الرطب ، كما استعاد ألوانه القازحة و شفافيته ؛ كان نهدا أمي ، ووركاها ، وبطنها تتقلص كلها مرتجفة من هذا التماس . كان يتراءى لي (ليس المرء مسؤولا" عن حبه لهذه الرؤى) سجاد غرفة الاستقبال ينفتح على بحر فيروزي اللون تقطعه جبال جليدية عائمة ، تغوص فيه أمي تحت عيوننا الفرحة ، فنلمح كلنا ، عبر حرشف ثوبها ، تقوس ذنب جنية البحر التي جمدتنا دهشة . زلقت في أذن أمي المنتصرة : يا للشيطان من أين جئت بهذا الثوب ؟ ولكن بدا أنها في ذاك المساء لم تكن تعيرني أدنى اهتمام . رحت أتخبط سابحة بين الأسماك الأخرى ؛ كانت غرفة الاستقبال تتحرك بجملتها وتبتعد عني ، فانحرفت ، وقلبي وجل، تحت الغثيان المتزايد من دوار البحر في الغرفة . كانت جاكلين تطبق عليَّ بنظراتها كالسدادة . فهربت .

توصلت ، من فرط ما مشيت في الشوارع ومن شدة ما أحسست الأرض تحت قدميَّ ، والقمر والنجوم من فوقي ، والهواء الندي يملأ رئتاي حتى الأعماق ، إلى أن أعيد توازن الجدران . إن ما حزَّ في نفسي ، ليس أني تحولت إلى مخلوق يعيش في حفر في منتهى العمق (إلى نوع من هذه الحشرات الشفافة التي تبقى ضاربة إلى الحمرة ، تحت ضوء كاشف لغواصات الأعماق ، لزجة تثير القرف إلى حد ما) ؛ بل هو

أن أتأكد بأم عيني، بالنسبة إلى باقي الناس ، أن الشعور الوحيد الذي أثاره زوجي باختفائه كان الانزعاج (وكذلك حال رخويات لجج البحار) ، وأن من الآن فصاعدا" يبتعد الجميع عني ، بضربات صغيرة حذرة من الزعانف ، وهم يدعون بأنهم يرغبون في أن يتذوقوا سكون الأعماق . لو كنت أستطيع ، وصوتي قد تبدل بإباء ، وعيناي على شفة الهاوية ، أن أعلم أهلي ومعارفي بيوم دفني ، أن أنشر في الجريدة إعلانا" بالاعتذار عن الزهور والأكاليل ؛ لو استطعت على الأقل، مثل حماتي ، أن أوحي بأن الغلطة كانت في مكان آخر ، وأن أبعد الحرج ، وأظهر حدادا" زائغا"، منعزلا" ، متفككا" ! كان عليَّ أن أعود فأصرخ زوجي غائب ، وأسحق بصراخي غضاريف المدعوين الدماغية .

رأيت حينئذٍ وأنا أبتعد ، ظهر الشارع ، هذا الشارع المقطع على شاطئ البحر ، الواقع ليس في الضاحية تماما" كما إنه ليس في أحياء السكن الصيفية ، إنه شارع بغيض ، فيه أشجار صنوبر بين المصابيح (أنا الفتاة الصغيرة ، سكون الشارع ، تقطيع الأسطح المتباعدة بعضها عن بعضٍ ، الأشجار السوداء والخشنة كالمومياء ، والممر الصغير الواجب اجتيازه حتى الباب ، دقه ، بسرعة ، كي يفتح : قبل أن يتعلق في ظهري إصبع نحيل شحذ من أرومة — فإذا ما استدرت إلى الخلف ، وقعّت حكم إعدامي) . يوجد غرفتان ، واحدة لها ، وواحدة لي ، وغرفة الاستقبال هذه ذات الواجهات الزجاجية ، حيث يقطعها الآن المدعوون . كنت كلما اقتربت ، سمعت

جملا" غنائية وضحكات تعلو ، في حين تضعف نفحة المحيط ، الذي بدا عمقه يزداد من تحتي ، كما لو أن جاذبية البحر تخترق الأرض بالاهتزازات : طاقة

'نشحَن بها مع شعور حدسي ، إلى أن نلمس عنصرا" من عالم آخر ، حينئذٍ 'نصعق في مكاننا (هكذا ، في الجسم ، فإن وجود يقينين متجابهين ، يفرغان مادة الأدرينالين في الفسحة التي بينهما) . كان ظهر الشارع مثل ارتداد البحر ، ليلة فيضان : كنت أرى ، كأنه قفاز قد قلب ، صورة شارع عكسية: كنت أسير في قاع المحيط وأحاذي الجدران العارية ، والبوابات المتآكلة ، وبرص السيارات المزبد ، والبساتين التي عاثت فيها الأخطبوطيات فسادا"، وأشجار الصنوبر التي حفرتها أصداف تمص الدماء (النسغ قد 'ضخ ، والأغصان الجاثية تشكل أرصفة صخرية) ؛ فللإبحار فوق المناطق المقسمة ، وجب معرفة مياه المتاهة الضحلة ، كما وجب سماع دفة القيادة تلامس التسقيفات ، والصالب يئز في خطوط المزاريب. ولكن خطوتي كانت رشيقة ، نشيطة وسريعة ، كانت المياه تحملني ؛ والبيت ينزلق نحوي (بيت طفولتي ، شقه النور كسفينة 'شقت من صدرها ، وهو يتنفس من أبواق المداخن) . كانت فقاعة هواء غرفة الاستقبال ترسل بريقا" أخضر ، كان ذلك حوض سمك معكوسا" وكنت، أنا سمكة القرش ، الأركة ، الفك ؛ دفعتني زعنفتي ، فرحت أطوف في البستان وسط الطحالب البحرية ، والملفوف المتبدل ، والجزر البحري ، وذوات الألف – هدب و مقرن – الذنب وقد اختلطت الأمور عليَّ فلم أعد

أميز الخارج عن الداخل ؛ كنت سأكسر الزجاج وسط اجتياح المياه والأسنان والصرخات . كنت أرى جاكلين ، وقد التصق أنفها بزجاج النافذة مثل فتاة صغيرة ، بمنخارين مستديرين وسط هالة ؛ كنت أرى كل هؤلاء الناس يتنفسون في الداخل ، ينحلون بسرعة في النور تحت ظل أشجار الصنوبر ، كل هؤلاء الناس الذين يتحركون في سكون في كثافة غرفة الاستقبال الشفافة ، والذين كانوا يتحملون بكل هدوء، في انزلاق الأشخاص ذاته ، المتواصل دائما" فوق وسادات هوائية، غياب زوجي . توقفت أستند على جذع شجرة ، متقطعة الأنفاس، لا أدري ماذا أفعل . كانت شجرة الصنوبر فوقي ترسل صرخات مكتومة ، وتحتك أغصانها بعضها ببعض ، ويستسلم القمر لشبكة أوراق الصنوبر المتلمة و الحادة . فمتعة الصنوبر الوحيدة في النسيم ، وأنغام الموسيقى التي تصدح من خلال الزجاج ، وصوت البحر الرخيم في صدري ، هذا كل ما كنت أسمعه . كنت أحتاج إلى أحد يأتي ، ليأخذ بيدي ، ويتحدث إليَّ ، ويطلب مني أن أعود .

جلسنا إلى مائدة العشاء . كان يبدو أن لا أحد قد انتبه إلى غيابي ، إلاَّ أني أدركت من نظرات بعض المدعوين المقطبة ، أنهم اضطروا أن ينتظروني للعشاء . بينما كانت الأطعمة، وقد فتحت أفواهها على البقدونس ، تدور بين المدعوين ، همست جاكلين في أذني تقول لي : إن أمي سترحل ربما لأمد بعيد ، أليس بإمكاني أن أبذل جهدا" لأقول لها كلمة طيبة ، بل حتى لأساعدها كما تساعد الفتاة أمها التي تعيش معها ، وربما أستفيد

من هذا اللقاء الأخير لغياب لا نعرف مدته لأتقرب منها ؟ وعدتني جاكلين أن تفعل ما في وسعها لتعطي إشارة الرحيل فأبقى وحدي مع أمي . كنت أسعى جاهدة لأفصل قطعة السمك في صحني عن مرقها الهلامي ، وأتجنب النظر إلى جاكلين ، أحسست أنها تبتسم لي بحنان ابتسامة مشجعة ، لا بد أنها تنظر هكذا إلى أولادها حين يجهدون ، مرتاعين ، لقراءة قطعة موسيقية على الكمان ، أو حين يبلعون ، وهم يفوقون ، البيض المقلي مع الملفوف ، أو حين يجدون وهم يتخبطون هلعا" الحل في لعبة الحذر . عاد كل ما حولي يتمايل ثانية كما تحت أمواج من الهواء ، وبدا لي ، لو استطعت أن أنظر من الواجهات الزجاجية لغرفة الاستقبال ، لرأيت أن الموج في الخارج قد خرَّب كثيرا" ، لأن رائحة اليود القوية قد استطاعت أن تنفذ إلى الداخل . لو وقفت وسط العشاء ، وفتحت الستائر كاملة ، لكشفت للمدعوين جسامة المصيبة ، فالبستان قد جرَّحته الأمواج وقطعه الجزر إربا" إربا" ، والصخرة 'سلخت وسط حفر بحرية ، وانهار أساس المنزل ؛ فخرج المدعوون بخطى وئيدة، وجلسوا على أشجار الصنوبر الواقعة ، ورفعوا أعينهم نحو سماء مثقلة بأعاصير ترجع علينا أمواجا" متدفقة . ومع ذلك كانت الأحاديث تدور ، ومنذ عدة دقائق كانت أمي في ثوبها الغريب تحاول أن تغير مجرى الحديث المقذع ، لم تكن جاكلين بالضرورة مدعوة مثالية ، ولم تكن أمي تعرف أي موقف تتخذ، كانت مذنبة قطعا" بتركها البلد ، حين كانت صديقتي تطالب بأن نوحد جهودنا جميعا" ، وأن نلغي الحدود ، ونقبل الزنوج ، ونلاحظ بأم أعيننا مظهر السكان المتاخمين لنا . وأخذ مدعو أقل

تمدنا" يلوح بـــالجريدة ، وألغـام خرجـت عـن خطوطـها فقتلـت مجموعة من أسود البحر ، والتي كـانت أجسـامها الهزيلـة تعرقـل بشكل مزعج أرجل المستحمين الذين احتـــذوا مجـاذيف مطاطيــة ، كانت أسود البحر بشكل عام موضوعا" يتفــق عليــه الجميــع وهــذا ما حاولت عبثا" أمي أن تعيده إلى المناقشة فـــي حيــن شــرع أحـد أعضاء مجلس البلدية (الذي عرف زوجــي حــق المعرفـــة) يــهدد بانسحابه من المائدة إذا لم يكبح كل مـــن جـاكلين والمدعــو الآخـر قليل الذوق جماح خيالهما الفظ وغير اللائق . كـــانت أمـــي مغتاظـة من عدم الاهتمام بها فصرخت فجأة (هكذا تنهار آخـــر مــزق مــن قناعاتنا) بأن عرّافتـــها (أمــي غارقـــة فـــي أعمـــاق كــرة مــن الكريستال ، وزنجية شاذة تربت علـــى كتفــها) كـــانت قــد تنبــأت لها، لم أستطع سماع البقية ، نهض عضـــو مجلــس البلديـــة ، وفـــي الفوضى المباغتة ، خلــت أن الطاولـــة ، وقــد جلــس إليــها أرواح ضاربة تعلن عن حضورها بعـــدد مـــن النقــرات ، ســتبدأ بتعــداد موتانا وتطير وهي تنثر الزجاج رذاذا" ، ولكـــن الأحـــداث لـــم تجــرِ على هـــذا النحـــو . بقيــت جالســـة ، يداعــب فخــذيَّ الضوضـــاء المتموجة تحت غطاء الطاولة ، وردفاي مســـمران ، وثملـــة قليـــلا"؛ ولم تكن الطاولة ، وقد ُثبتت جيـــدا" تحــت مرفقــيَّ ، هــي التــي تدور ، ولكن كل ما كـــان حولــي ، فـــالمدعوون يـــدورون وهـــم يرقصون ، وكذلك يدور بريــق الأنـــوار علـــى الجــدران يعكســها ثوب أمي السائل ، وعاكسو النور يـــدورون كرقـــاص الســاعة مـــن تنغيم جاكلين ، وكذلك وجه حمـــاتي المرتـــاع ، التـــي ربمـــا كـــانت تنتظر فقط طبق اللحم المشـــوي. وبـــدا لـــي أن كــل هـــذا الـــهرج والمرج لم ُيثر إلاَّ لهدف واحد : إخفاء غياب زوجـــي تحــت قنـــاع

الصخب والصيحات ، ردمها بالهواء المتحرك وبحركات الأذرع تلك الهوة الجنونية التي تركتها وراءها ذراته المختفية .

كنت أرى الوجوه ، كبيرة وحمراء اللون ، والأفواه بنفسجية ، والأيدي قريبة جدا" مني ، كنت أرى مفصلا" ، كما في مجهر بأشعة تحت الحمراء ، الدوافع العصبية تنبثق من الدماغ ؛ وكانت الأجسام ’تقذف من الأمام ، والسوق تقوست ، وجذوع الأجسام تقطعت من الغطاء ، وكانت الحركة العظيمة هي التي تحمل معها كل ذلك ، فهي التي تسبب كل هذا الاهتزاز و’تبقي ذرات المواد بأكملها في توتر : كان ضباب من العرق ، والقرتين ، والقشر الذي تفوق رقته الطبقة السفلية من الفطر ، يعوم بين الأجسام وقد أشبع بالكحول الذي يرشه اللعاب وقت الكلام ؛ والمفروشات ، تتفكك رويدا" رويدا" على شكل رماد نباتي تحت أسنان القرابيات الخشنة ؛ والخمرة تجمعت و’حبست في كؤوس عليها بصمات الأيدي الدهنية ؛ كان غاز الفحم يثقل الهواء ، وكل ذرة من ذراته تحتل بانتظام ، في كل زفير ، مكان ذرتي أكسيجين ، فإذا ما استمر الأمر على هذا المنوال نصبح قريبا" كتلا" مزرقة ، فيبطئ نبضنا ، وينتفخ قلبنا ، ويملأ السواد لساننا . كانت كل هذه الذرات تختلط في أنبوب اختبار غرفة الاستقبال ، وكانت عملية كيميائية جريئة تمزج موادا" جديدة : جزء من بليون المتر من رمش الأم وجزئية غرامية من الأريكة (من السمك ، ومن السيليكون ، ومن المستشار) تلد فرضية صغيرة جدا" ، إمكانية شيء ما معلق في الهواء أو مطمور في البساط ، أهداب تضطرب بأمل

محتمل ؛ وكنت أحضر بلا حراك ، منهكة علـــى الأريكـــة ، هجـــوم إرادة خشنة فظة ، متدفقـــة هنـــا كالريـــاح الجليديـــة ، لا أدري مـــن أية نافذة أتت ، أو من أية مدخنـــــة ، أو مـــن أي محيـــط ، فكـــانت تطرد فورا" نواة الوحش الذي في منتـــهى الصغـــر وتمنعـــه مـــن أن يتكون . ولكن كان يبـــدو أن لا أحـــد مـــن المدعويـــن يـــهتم بـــهذه المجزرة ، ولا بريح الشمال التـــي يقذفـــها تنيـــن الخزانـــات هـــذا ، الذي كانت أنفاسه تنساب مع ذلـــك ، بـــدون انقطـــاع ولا رجـــوع ، بين ذرات فضائنـــا .

حينئذٍ خيـــل إلـــيَّ أن أمـــي ، وجـــاكلين ، ومستشـــار مجلـــس البلدية ، والمدعوين (زين الجميع غبـــــار اضطـــراب لـــم يكـــن إلاّ عطاسا") لا يخفـــون شـــيئا" وراء جدلـــهم : فمـــا كـــانوا يناقشـــونه يشغلهم فعلا" إلى حد ما ، ولم يكــــن الموضـــوع يخـــص زوجـــي ، ولا الوحوش والمسوخ على وجه الدقة أو التنيـــــن . كنـــت أرى فـــي غمام حولهم رسم بعـــض أفكـــارهم ، فـــاصل مـــا بيـــن الأجســـام، والحركات والكلمات ؛ كانَ ضباب بحــــت مـــن الجزئيـــات يتكـــاثف أحيانا" بأشـــكال حلزونيـــة بيضـــاء لا تلبـــث أن تختفـــي ، وبـــبريق رطب ، حيث كان يستطيع أن يعـــوم علـــى فـــترات أشـــبه بذكـــرى عن زوجي ، وكذلك تأنيب ضمـــــير حـــدث عـــن تقصـــير أو عـــن ضيق (وهذا ما ُخيل إليَّ أني شعرت بـــه فـــي بدايـــة الســـهرة) . ومع ذلك كان النقاش يستمر ، والأشـــكال الحلزونيـــة تتجنـــب بقـــوة دوراتها حـــــاجز الفـــراغ هـــذا ، والأجســـام تتحـــرك دون قفـــزات كثيرة. وأعتقد أني أدركت ، في ما كـــان فيـــهم يقـــاوم التمـــزق ، أن لا أحد يتذكر بدقة زوجي أكـــانت أمـــي، أم جـــاكلين ، أم أي واحـــد

من المدعوين (ربما باستثناء حماتي) . لا شك أنهم يعرفون أني كنت قد تزوجت ، وأن زوجي قد اختفى ، وأني أتألم طبعا" من ذلك ؛ ولكن من البدهي أنهم كانوا عاجزين عن التوقف هنا؛ لم يكن 'يسمح لهم أن يأخذونا كلينا ثانية في سير حياتنا الذي انقطع . كان هذا ضربا" من الفيزياء ، من فيزياء اللحظة ، تلك التي تصف كذلك قوانين الذاكرة ، والغياب ، والاختفاءات . فزوجي بتبخره قد حمل معه ، كما يحمل النجم المذنب ذيله ، كل الجو الذي كان يكوِّن وجوده ؛ فمنه لم يبقَ إلاًّ أنا ، وكنت ، أنا ، قد 'حرمت من هذا الهواء الذي كنت أستنشق فيما مضى ، ولا أحد يستطيع أن ينفخ هذا الهواء في مكانه . ليس لأن حبنا كان كذا أو كذا (< حبنا هو تعبير متعب >) ولا لأننا كنا ، أصلا" ، فريدين : لم يكن زوجي بالنسبة إليَّ يستحيل الاستغناء عنه وكذلك الأمر بالنسبة إليه ، وإني الآن على يقين من أننا كنا نشبه الناس جميعا" ، إذا كان كل الناس يترددون بعد ثانية من السكوت في أن يقولوا < حبنا > . ولكن الفسحة التي تركها بقيت خالية ، والفجوة في الكون منفغرة ، هنا تكمن الفضيحة ، فلا أعرف قانونا" يستطيع أن يصفها ، ويسدها أو يقرها .

خرج مستشار مجلس البلدية ، وغمغمت زوجته باعتذارين، ثم أمسكت بسرعة المعطف الذي بسطته لها أمي الملتفة بثوبها المصنوع من السيليكون على شكل مثقب . حدثت حركة أدت إلى نتيجة بطيئة . فكنت أرى فعلا" ، في عودة المدعوين إلى الجلوس بكل هدوء ، وفي بشاشتهم في استعادة شوكاتهم وسكاكينهم ، وفي قبولهم الخمر ، وفي تبسمهم من كل

ما جرى ، كأنه غيم أزيح عن شيء ما . أخذ الـــهواء حولنـا نقـاء" غريبا" ، مثل تلك السـماوات العاريـة التـي لا تدفئوهـا الشـمس ، والتي يدرك المرء تحتها أن الزرقة هي لـــون الفــراغ . حيـن لـم يعد فيها شيء معلقا" ، حين سكن الـــهواء سـكونا" كـاملا" و أمسـى مضيئا" بين كل كرسي وكل جســم ، سـقط الصمـت كمـا تسـقط البلاطة . حينئذ 'فتح البـــاب الداخلـي ببـطء شـديد (بـدأ الزمـن يتمدد)، ظننت أن مستشار مجلس البلدية قد عــاد ليعتـذر أو ليقتـل المدعوين كافـــة ، الذيـن كـانوا ينظـرون بعضـهم إلـى بعـض منزعجين ، يسعلون ســعال ضيـق ويبصقـون متـبرمين ، بينمـا كانت أمي تأخذ شهيقا" ، كي تتكلم بإسهاب عـــن الصمـت ؛ ظننـت آنذاك أنني الوحيدة التـــي أرى زوجـي يدخـل ، ولكـن الصرخـة التي أطلقتها حماتي قد كذّبت هذه الفرضية . بينمـــا كـان الضيـوف يـتزاحمون حولـها وقـد أغمـي عليـها ، بـدا زوجـي يـتردد ، متأرجحا" على العتبـة . أحسسـت بوضـوح تيـار الـهواء القـوي الذي كان يتقدمه ، ومع ذلك ، لم يتحرك أي عـــاكس نـور ، وبقـي غطاء الطاولة ساكنا"، وإذا افترضنا أن الانتبـــاه قـد تحـول لثانيـة عن حماتي ، فلا أحد قد طلب إغلاق البــاب . كـان زوجـي ينظـر إليَّ ، نظرة غريبة ، كما على تلك الصور حيـــث بـدا يحـدق فـي نقطة وراء العدسة . حاولت أن ألتقط نظرتـــه ، أن أتدخـل قبـل أن تنزلق بعيدا" جدا" نقطة الهدف التـــي كـانت عينـاه تبحـث عنـها . تقدمت خطوة إلى الأمام ، لم يتحرك زوجي . مـــددت يـدي برفـق كبير . كان يفصلنـــا حوالـي عشـرة أمتـار : عـرض الطاولـة ، السجادة ، الرف المثلث الشكل في المدخل، مشـجب . بـدأت أهيـئ العملية ببطء . لم أكن أفارقه بالنظر ، وظننـــت أنـي هكـذا أمسـكه

هنا ؛ مثل صورة تبيناهـا الآن فـي سـجادة ، فبـإخراج الخطـوط والقطب من تشابك الصوف ، يظهر وجه لم 'ينسـج قطعـا" فيـها، ونضيعه إذا ما رمشت عيننا . من هذه الأشكال فـي السـجاد (فـي الملاط وفي ورق الجـدران ، فـي عقـد الخشـب ، فـي تقلبـات الغيوم) كان زوجي يستمد وجوده إلـى حـد مـا . كـانت تقاطيعـه تتبدد ، ومعطفه يتناثر زغبا" حوله وشعره يسبح فـوق رأسـه كأنـه رذاذ ؛ وجلد وجهه قد 'رش بطبقة رقيقة وبيضـاء جـدا" . انزلقـت بتؤدة حول الطاولة ، أحاول جاهدة ألاَّ أحيل بصـري عـن تقـاطيع وجهه ؛ كانت ذاكرتي تسعفني بقدر عينـيَّ . كـان عليـه أن يبقـى هنا ، ثانية أخـرى ، حتـى ألمسـه ، ثانيـة أخـرى بـالرغم مـن شكي، وهذا ما يكوِّن وجود زوجي ، فيما بـدا ينكـر علـى الزمـن إمكانية إطالة بقائه ، وعلى المكان إمكانيـة إعطائـه شـكلا" . كـان مصباح في الخارج ينفذ ضوءه من خلاله كمـا تنفـذ الشـمس مـن تحت الضباب ، في الصباح ، حين الطقـس بـارد ؛ كـانت عينـاه اللتان لا تنظران إليَّ ، اللتان تنظران من خلالـي قـد امتلأتـا مـن هذا الضباب . كان زوجي ، بالرغم من لـون وجهـه المضـيء، ذا مظهر قلق وكأنه بـاهت .

درت حول الطاولة . وأخذت في اجتياز السـجادة . لـم يكـن نظري يكفي لإدراكـه ؛ كنـت أريـد أن أضمـه بيـن زراعـيَّ ، فيستريح ، ويستند علـيَّ ، تعبـا" ، مثقـل الـرأس ، ونعـود إلـى البيت. أعده أن أفعل كل ما يريد . سـأحبه طـوال حيـاتي . أهتـم به . أقلق على صحتـه ، وعلـى عملـه ، وعلـى عزلتـه وعلـى الفراغ الذي ربما يشعر به . سأطلب منه أن يصـف لـي المنـازل،

والشوارع ، وينابيع المياه ، والسماء ، وما كان قد حلم بما سيكون أطفالنا . سنتحدث مختلف الأحاديث . لن نخاف أن نبكي. سنرى الألوان عينها ، الأشكال ذاتها ، وسأكف عن التساؤل إذا كان زوجي (إذا كانت القطط ، والطيور ، والأسماك والذباب ذو العيون المتعددة) يحس ويرى مع ذلك ما أشعر أنا به وما أراه . كانت السجادة تسير ببطء تحت قدميَّ ، وزوجي واقف على العتبة ، لا يتحرك ، على مرمى يدي ومع ذلك فهو بعيد عني ، متراجع دوما" في المسافة الصامتة عينها . كانت الحبكة تستطيل ، والرسوم تتضخم ، وتتعقد ، وتختلط بعضها ببعض ، فكنت أتبع خطا" أزرق يلتف فجأة فوق خط أخضر ، ولم أكن أعرف هل أنا ضحية سحر ’نسج مع الصوف، أو عرضة نفاد صبري للحاق به ، أم شيء ما بيننا ، ربما أرخى خيوط الزمان والمكان . نطقت اسمه بصمت ، وقد خفت أن أضع فيه صوتي ؛ وجب على كل شيء أن يسكت ، وأن يبقى على الصعيد ذاته من الهرج والمرج على شكل فقاعات، وعلى غمغمات تبقبق وعلى غموض ؛ فلا شيء يطقطق ، ولا يصفق باب ، ولا ’يلفظ اسم ؛ وإلاً يطير زوجي كطائر قد قطع المحيطات .

لم يبقَ إلاَّ باع للوصول إلى المشجب ، مسافة عرض أرض الغرفة ، خطوة حتى المدخل ، سأعانقه ، وبضربة من رجلي أغلق الباب ، فيكف تيار الهواء عن التهديد ببعثرته في مهب الريح . ظننت أني وصلت إلى هدب السجادة . تراجع زوجي . تحرك شيء ما معه ، انحسار هواء ، فانتقل من مكانه

كما تنتقل الصور على شاشات الحاسب القديمة ، فتترك ذيلا"
في الجزيئات الضوئية ، والانطباع يبقى قليلا" بعد انقطاع
الاتصال ؛ بريق يتجمع على ذاته بمجرد أن تتوقف الحركة .
إلاَّ أن زوجي تابع اهتزازه ، فتعكر ظهوره واختلطت التقاطيع ،
كأنه أخضع إلى تحكم في وجوده قد اختل . كان عليَّ أن أعيد
رسمه ، أن أسجنه ، أن أصغره ؛ أن أمسكه هنا أخر الأمر ،
أن أضغطه في جسم واضح تمام الوضوح ثم أخرجه من القالب
كما صار ، كي يكف عن الرفرفة في مكانه مثل الهواء الذي
يطير على شكل غبار فوق الخرق حين ’تنفض . وصلت إلى
زاوية المدخل ، فانتصب المشجب في وضعية قتال المحسَّة ،
والكلاليب ، والمشاجب والأقواس التي امتدت لتجعلني عوراء
، قلبت المشجب ، فحدثت ضجة عظيمة ، صرخت حماتي من
جديد وانفجرت فقاعات ضخمة على شكل أصوات متنوعة في
أذنيَّ . استطعت أن أمسك بسرعة كالومضة ، نورا" بقي في
أصابعي وفي عينيَّ : ذيلا" مذرورا" ، ثلجا" من الهواء،،
وأحسست ، بوضوح تام ، كثافة شيء ما كان يلحق زوجي ،
وينتزعه مني ، ويفرغني ، أنا ، من ماهيتي (داخل جوفي ،
وقد انطوى بعضي على بعضٍ ، وتوقف الخفقان) .

(١٠)

قال أحدهم : أغلقوا هذا الباب . كنت أتفحص ظلمة السماء فوق الحديقة التي كانت أشد ظلمة أيضا" ، في شقوق الأغصان . تناهى إليَّ أزيز ما ، نفحة جناح قد انتثر ، شدتني جاكلين من ذراعي قائلة : حماتك . أم زوجي ، شاحبة شحوب زوجي ، كانت ممددة على الأريكة ، يروحون عليها ، ويسقونها، كانت أمي تقفز قفزات صغيرة ، وقد التصقت سماعة الهاتف بأذنها ، وراحت تومئ لي بإشارات كي آخذ نصيبي من هذه المهسترة التي يعتبر الجميع أنني سبب جنونها . صحبتنا جاكلين نحن الاثنتين إلى بيتينا في الضاحية . لا أدري لماذا لم أدخل فورا" ، تظاهرت بأني أفتح باب بنايتي أمام ناظر صديقتي اليقظ ، ثم ، ما إن دارت سيارتها في المنعطف ، حتى سحبت مفتاحي وابتعدت سيرا" على الأقدام . مشيت طويلا" . رجعت إلى شاطئ البحر . لم نقم أنا وزوجي بهذه النزهة الطويلة من البيت إلى البحر إلاَّ مرة واحدة . حدث ذلك في يوم من أيام الصيف وكنا قد سبحنا ، وطوال طريق العودة كانت تفوح منا رائحة البحر ؛ وتحول الغبار بين التلال إلى طريق 'معبدة ، وكان الملح يشد وجنتينا ، والشمس الحمراء تشق جلدنا . أتذكر نضخ الماء علينا حين عدنا ، وكأننا نشرب من مسام جلدنا . لا أذكر إن كنا مارسنا الحب . إني أتذكر الأحداث ، ولكن الحب لم يكن حدثا" ، بل شكلا" خاصا" للزمن ، 'يترك و'يؤخذ ثانية ، أو بالأحرى كان يتركنا ثم يأخذنا من جديد : زمن يبدو ظاهريا"

متحدا" ولكنه ربما كان يتبع منعطفات وانحناءات ، شأنه كالسنة في حركتها ، ثورة حول شيء ما ، كنا نقترب ثم نتراجع ببطء من نقطة أشد حرارة، وأقوى حساسية ، وأكثر مركزية ، وفق الفصول ، الملتهبة أو المنكمشة . إنني لا أتذكر الليالي بنوع خاص (ربما أماكن ، أو غرف فنادق ، ونادرا" شواطئ سباحة : وقائع 'حذفت) ؛ إني أتذكر فترات ، مرور أشخاص ، روائح ، رطوبة ، توتر أو تجنب ، تباعد وتقارب ، استرخاء ويقظة ؛ تتكرر دائما كثرت أم قلت ، ولكن الأكثر أو الأقل هو الذي يعطي الإيقاع للذاكرة أمام البحر الليلي ، أدركت أنه زمن الضياع . فذكرى عشاقي كان زمنا" يمكن التأكد منه ، كنت أستطيع أن أعيشه من جديد ، أن أخرجه ، وأن أعجنه ، وأن أستخلص منه ثانية المتعة واللذة ، وأفرك به ذاكرتي . أما زمن زوجي فقد كان زمنا" ممتدا" ، كان خطا" واحدا" من الزمن لم أكن أجده في تتابع الذكرى ، وإنما بدا كما لو تمت حياكته في نسيجها ، يستحيل فكها والتعرف عليها .

كانت كتلة البحر السوداء تضرب صدغيَّ . وثمة حركة بكليتها تتبدل فيَّ ، شأن انبجاس يشغل الفراغ فتتحول مباشرة إلى حنين مرعب لأنه حنين إلى لا شيء . كان هذا الشعور خوفا" وليس شهوة ، الخوف من أني فقدت نقطة هذه الشهوة . كانت الشهوة فسيحة واسعة إلى أبعد الحدود ، فانتظاري صار نوعا" ما شاملا" ، حتى إني شعرت في جسمي وفي كل ما يكوّنني بنوع من الانفكاك ، من التحليق الخاوي والذي لا هدف له ، وهذا ما يحدث في الكوابيس ، حين تظن أنك تقترب من

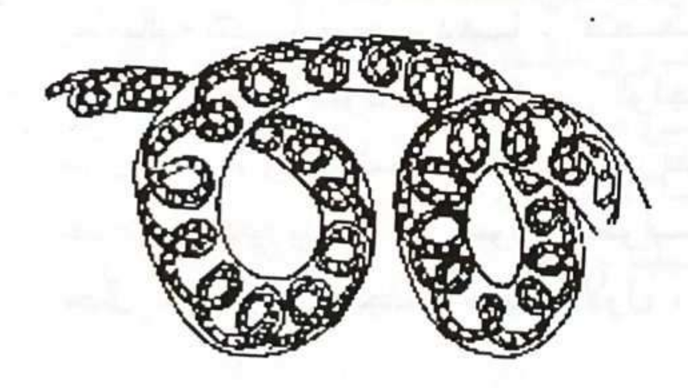
النقطة التي تستمر في التراجع إلـــى منتصـــف المســـافة ، وتـــتركك هناك ، وقد جن جنونك ، غير قادر أن تدرك أنك لـــن تصـــل إليـــها .هل يمكن أن لا يعود زوجي أبـــدا" ؟ كـــانت الأيـــام قـــد مـــرت ، ولكن الفكرة بقيت جديـــدة ؛ ألـــم يعـــاودني باســـتمرار ، و يشـــغل الحيز كله : ودائما" بالطريقة التامة عينـــها ، فـــي موضـــع الذكـــرى ومكانها ، كنت أتـــألم .

جلست في إحدى ثنايا التل وأشـــعلت ســـيجارة . و كنـــت قـــد استعدت هذه الحركة ، إنها إحـــدى عـــاداتي . كـــانت الشـــقة آهلـــة بحركات مزدوجـــة ،'شـــطرت هـــذه الحركـــات شـــطرين بغيـــاب زوجي ؛ فالتدخين كان يفتتح زمنا" آخـــر ، إلاً أنـــه يســـتحيل علـــيَ كذلك أن أعيش فيه . توقف الزمـــن فلـــم يعـــد يجـــري . ســـيجارة تلتها واحدة أخرى ، بدا تنفسي يعود دائما" إلى النقطـــة ذاتـــها . لـــم أكن أرى إلاً البحر ينزل بطيئا" تحت سماء ربمـــا بـــدأت تتجلـــي . هناك ، عن بعد ، أضرم مجمـــر مـــن جهـــة الأبـــراج المصفحـــة ، كان الهواء يحمل بعض الصيحات . فســـواء أنمـــت فـــي العـــراء ، و'قتلت ، أو ركضت أرمي نفسي لأغرق في لـــج البحـــر ، أصبـــح ذلك احتمـــالا" واردا" ، صيغـــة ثابتـــة للانفتـــاح ، قـــد يكمـــن هنـــا مخطط ما ، قرار عليَّ اتخاذه .كما علي تنفيذه أنـــا بنفســـي . كـــانت أسود البحر تغط في النـــوم ، وقـــد تكومـــت كدجاجـــات ضخمـــة . والقمر سقط من الجهـــة الأخـــرى للكـــرة الأرضيـــة ، والأمـــواج الملتفة تصعب رؤيتـــها إلاً علـــى ضـــوء النجـــوم الأخـــيرة ، كـــان هديرها هو الذي يـــذرر ، نتفـــا" ، بـــرذاذ الزبـــد الأبيـــض . كـــان البحر في الليل أضخم مما رأيـــت حتـــى الآن ، لا حـــد لـــه تحـــت

سماء كان يبتلعها ؛ كان علـــيَّ أن أفكـر لأحـدد مكـان النجـوم ، لأضع حدا" لارتفاع هذه السماء . كـان مـن دواعـي اطمئنـاني أن يكون البحر فسيحا" هكـذا ، كبـيرا" جـدا" يسـتحيل فهمـه . كـان ممكنا" قبول ذلك ،ألاَّ أفهم البحـر . يمكـن أن نقـص علـى أنفسـنا حكايات وأن نستسلم لهدهدته ، ونردد بأنه ذاكـرة ، وبـأن كـل ذرة من ماء البحر في البحر كـانت جزيئـا" مـن الذاكـرة الضائعـة ، والتي وجدت من جديد هنا ، فتجمعت ثانية هنـا ، بيـن الضفـاف ، تسبح فسيحة واسعة بقدر ما نـأمل .

أخذت سيارة أجرة للعودة . بزغ النـهار مـن طـرف البحـر المعاكس لجهته الغربية . ظـهرت البنايـة بوضـوح تـام ، كتلـة سوداء لفها النور ، واجهة لا تُرى في الظل . كنـت أتبيـن فقـط ، من نوافذ شقتنا ، بريق نور خافت ليلي لأني لـم أكـن قـد أغلقـت المزاليج ؛ فبدا ذلك كعين، عيـن واحـدة يقظـة تسـهر . جلسـت على الرصيف المقابل . كـان الشـارع ضيقـا" والجـدار منحنيـا" عليَّ. كانت نوافذنا تلمع لمعانـا" خافتـا" متقطعـا" ، فبـدت كخـط أزرق داكن فوق حافة . كانت الهالة التي نفـذت فـي ظـهر البنايـة تزيدها عتمة ، وبدا لي أن هذه الهالـة سـتحملني بيـن إصبعيـها ، وركبتي على الأرض ، وسترفعني حتـى عينـها . كـانت الشـمس اللآمبالية تتـابع صعودهـا . فُتحـت نـافذة شـقتنا فـي الطـابق الخامس ، فنفذ ضوء خافت إلـى الواجهـة ، كأنـه خضـاب يعـوم حول جفن . وقف شخص اتكـأ بمرفقيـه يدخـن سـيجارة ، كـان نفسه الرمادي يذوب في اسوداد الطوابـق . نـهضت واقفـة . بـدا خيال آخر يرتسم بجانب الخيال الأول ، قريـب جـدا" منـه . كـان

ولا شك صخب محادثة أسـمعه الآن ، يتنـاهى إلـيَّ بشـقوق فـي الواجهة . صعدت . كـانت سـاقاي لا تطاوعـانني . كـان السـلم ينبسط تحت قدميَّ دون أن تتتابع الدرجات . بـدا لـي أنـي أصعـد منذ زمن طويل ، ولكني أغوص مع ذلـك عالقـة بطـابق أرضـي لا يمكن التعـرف عليـه ، أو أنـزل إلـى الأقبيـة ، حيـث كـانت تنتظرني أشياء غريبـة تحـيرني أكـثر . توقفـت ثانيـة واحـدة ، متقطعة الأنفاس . كان الفـراغ فـي قلـب السـلم ، الملتـف علـى شريط الدرابزين ، قد فقـد شـكله العمـودي . واتخـذت الجـدران انحناءات جديدة ، كما لو كانت الدرجـات ، بـالرغم مـن التفافـها على ذاتها ، تنطوي داخل محور حلزونـي ؛ كمـا أن شـكل مسـقط الدرج كان حلزونيا" أيضا" ، وإن لم أستطع التأكد مـن ذلـك ؛ بـدا الدرج الذي أصعد يتتـابع بانتظـام ، ولكـن السـلم الكبـير الـذي يحويه كان يصعد ويهبط علي شكل كتل ، وقـد اسـتحال علـيَّ أن أعرف أين كنت أذهب ؛ ربمـا كـان هـذا السـلم الثـاني يخضـع لدوران السلم الثالث الكبير ، وهكذا دواليـك ، ولا أعـرف إلـى أي طابق سيصل أو إلى أي عمق سينزل ، ولا أي اتجـاه يـأخذ . فـي شقتي الخالية ، حاولت أن أخط رسـوما" كثـيرة تعـبر عـن هـذا الإحساس الذي يستعصي على فـهمي ، وإن أنجـح فـي أن أرسـم ما يقرب هذا الشـكل :



كان الضوء الكهربائي يؤلــم عينــيّ وقــد زاد حدتــه عــاكس النور المحرشف . ما الوقت الذي يلزمني لأصل إلـــى مكــان مــا ، إن كان علي أن أصعــد الســلم المثبــت وســط القفــص المغلــق ؟ رحت أسير في الشـــقة . كــان البســاط مغطــى بــأوراق دعكــت فصارت كتلا" ، فرحت أخبــط برجلــيَّ ممــا أثــار زوابــع ثلجيــة تختفي سريعا" . لم أعثر على أحد في شقتنا المؤلفــة مــن غرفتيــن، ولا في المطبخ ولا في الخزانات ؛ لا يمكن لأحــد أن يوجــد هنــا ، لا زوج من الأشباح ، ولا مسخ أو وحــش ، أو خدعــة أو مقلــب ، لا شــيء .

بقيت مدة متمددة علـــى الســرير . كــانت المصــابيح تتدلــى شاقوليا" . أحسست الجدران تميل من جديد ؛ كــان الســرير يصعــد نحو السقف ، والسقف ينحدر نحو أصيص اليكّــة الــذي كــان ينمــو وهو يئز ؛ كانت الفسحة بيــن الســرير والنــافذة تتقلــص حتــى إن الشارع ظهر كأنه يبدأ تحت أغطيــــة ســريري ، وتقســيم المدينــة التربيعي ينبثق مني كشبكة . اقــترب الســرير كثــيرا" مــن النــافذة حتى إني ظننته سيشق الزجــاج ويحملنــي معــه ، فتســبح أغطيــة السرير في الهواء ، وأبقــى متمسكة بالوســادة . كــانت الشــوارع العريضــة تمتــد حتــى الســماء الســوداء ، وأشــرطة الفوانيــس المزخرفة تتنزل من نوافذي المضاءة ، كانت معــالم المدينــة تتقطــع على شكل نقوش تبرز على الأفق . كنــت أشــعر بضغــط الــهواء تحت وسادتي ، يهتز تحــت الســرير ، وإذا مــا بســطت ذراعــيَّ، استندت علـــى ســرعة تيــارات الــهواء ، فأســتفيد مــن الريــاح الصاعدة ، ومــن الرعشــات اللطيفــة فأســتطيع أن أمــيز الــهواء

الحار الذي يصعد من الهواء البـــارد الـــذي يـــنزل ، وفـــي بـــاطن راحتيَّ ، تحت ذراعـــيَّ ، تحـــت بطنـــي ، وهـــو يمســـك أصـــابع قدميَّ ، وينساب بين أصابعي ، أشعر حينئـــذ بخـــط طـــيراني . فـــي الطرف الآخـــر ، المشـــرق ، كـــان هنـــاك البحـــر . اســـتطعت أن أتخيله بمجرد النظر إلى السماء ، البحر ، وهو يخفـــق فـــي أســـفل البناية ، فأسمع نفحة ارتداد المـــوج فـــي البـــهو ، البـــاب يتحطـــم ، والأصداف تلتصق رويدا" رويـــدا" فـــي الحجـــر (كـــانت ســـيارات الأجرة تلقـــي المرســـاة ، والزبـــائن بالمعـــاطف الواقيـــة يتخطـــون النوافذ ، والخبازون يحملون من الأقبية طحينـــا" مثقـــلا" بـــالقريدس الشبعان) . وجب طوفان ، تراجع تلال ، ذوبـــان جبـــال جليديـــة ، بدا لي أني أخيرا" قد أنسكب ، شيء مـــا فـــيَّ قـــد يستســـلم ، ولـــن يبقى أمامي إلاَّ أن أعوم مـــع أســـود البحـــر . كـــان هـــواء خفيـــف يجعل زجاج نوافذي يرن . أدركت أن الشـــمس لـــم تشـــرق : إمـــا لأن رسمي قد استغرق وقتا" طويلا" مني لذا عندما عـــاد الليـــل لـــم أكن قد تابعت دوران الكوكـــب ؛ أو علـــى العكـــس لـــم تمـــضِ إلاَّ بضع دقائق منذ صعودي . هدأ ارتـــداد المـــوج ، وشـــيء مـــا فـــي المصابيح قـــد انطفـــأ بـــهدوء . اســـتدرت نحـــو النـــافذة ، ورأيـــت زوجي ، منتصبا" على الدرابزيـــن . نـــهضت لأفتـــح لـــه ، فخطـــا على الحافة ، خلع معطفه الذي أخذته من يديـــه . قلـــت لـــه بـــأنني انتظرته طويلا" . لم يجب . بدا وهو جالس علـــى حافـــة الســـرير ، بحذائه على البساط ، أنه ينتظر شيئا" ما ، كما لـــو أن علـــيَّ أنـــا أن أستقبله ، أن أسأله ، لا أدري ماذا ، هل قام بســـفرة جيـــدة . مكثـــت واقفة ، أسوي معطفه ، أبحث عـــن كلمـــة ، عـــن فكـــرة . أخـــيرا" وضعت معطفه على أعلـــى الســـرير وجلســـت . لبثنـــا صـــامتين .

كنت من حين إلى حين أجـــرؤ أن أنظـــر إليـــه خلســـة، ولـــم أكـــن أعرف إن كان علـــيَّ أن أفتـــح ذراعـــيَّ ، أن أداعبـــه ، أن أتمتـــم عبارات الندم ، والعتاب ، والمواعظ ، من هـــذه الكلمـــات التـــي لـــم نكن نلفظها البتة ؛ أم كان عليه هو أن يقوم بذلك . هـــل كـــان علـــيَّ أن أتمدد وأنا أفـــك أول زر ، وأن أرفـــع أول كـــم ؛ أو ربمـــا أدق علـــى الجـــدران ، وأخبـــط بقدمـــيَّ ، وأرمـــي بالأشـــياء عـــرض الغرفة. فالحق أنني ، وأنـــا أنظـــر إلـــى زوجـــي خلســـة ، زوجـــي الذي أعرفه منذ سبع سنوات ، زوجي الـــذي نظفـــت وإيـــاه معـــا" ، وندبت أمامه حظي التعـــس ، وخدَّشـــت ظـــهره ، وقبّلـــت لســـانه ، وتشاجرت معه لشراء الخبز ، لـــم أعـــد أعـــرف مـــاذا أفعـــل ، ولا ماذا أريد . فبالإضافـــة إلـــى انطبـــاعي الأول الغـــامض والمبـــهم ، خيم الآن نوع من الثقل ، ثقل غير مألوف ، فبـــدلا" مـــن أن يثبـــت صورته ويوطدها ، جعلها تزيغ وزادهـــا ميـــلا" وانحرافـــا" : كـــان زوجي ساكنا" أو ، كما كـــان لتـــوه ، مغطـــى بمعطفـــه ، مـــا زال زوجي يبدو زوجا" مقبولا" ؛ ولكن إذا مـــا حـــرك أقـــل جفـــن ، إن ما كان يثبته هنا على كل حال بـــدا يثقـــل فـــي مركـــز شـــخصه ، يكثف مادته ، يجمعه فـــي نقطـــة واحـــدة مركزيـــة تتركـــه خاويـــا" فعلا" على الأطراف (حيوانـــا" أشـــعر يعـــرض بعكـــس الضـــوء ، وهالة شعره التي لم تعد ترسم إلاَّ محيطـــا" خارجيـــا" لـــه ، تكشـــف عن جسم هزيـــل حتـــى إنـــه يثـــير الســـخرية ؛ عينـــان تقطعـــهما الانعكاسات ـــ تلك التي يطلق عليها ، في ســـاحات الاســـتراحة فـــي المدرسة ، اسم عيون القطط (وهو نوع مـــن الحجـــارة الكريمـــة) وقد تركت في الشمس على لوحـــة تلتمـــع ، والتـــي يحـــرك ظلـــها الملون الفروق الطفيفة ليخلق عيونـــا" واســـعة جـــدا" وهميـــة ، مـــع

قلب صغير جدا" كتيم لا ينفـذ الضـوء إليـه يشـكل حصيلـة كـل ألوانه ؛ صورة من السينما تعرض بسرعة متباطئـة وقـد صـورت بزمن بطيء جدا" ، الشـريط المصـور يتجـاوز الحركـة ، و قـد يقال إنـه يسـبقها ، ويتوقـع مـا سـيتبع ، كيـف سـيقع الجسـم المضروب علـى الأرض ، وهـو يخـط فـي الـهواء انحنـاءات سقوطه ، وتدرج الأجسام التي تقـع ؛ فلنقـل موجـة ترتفـع عاليـا" ويخترقها شعاع ، تتلون المياه بالأخضر الفـاقع حتـى إنـها تتحـول إلى بياض ضوء ، فلا نعـود نـرى الموجـة ولا الشـمس ، وإنمـا مجرد غياب يتحرك حـول مركـز دوران ، و موجـة إثـر موجـة فلا نعود نرى البحر) . كان زوجي ، وهو جـالس علـى السـرير كما كان ، ببنطاله الـذي أعرفـه جيـدا" ، بحذائـه الملمـع الـذي يدوس به البساط ، بربطـة عنقـه المفكوكـة قليـلا" ولحيتـه التـي نبتت في النهار ، بالضبط كما كـان قـد خـرج ليشـتري خـبزا" ، كان زوجي يؤلم عينيَّ ، وينتشر بشكل كبير حتـى خيـل إلـيَّ أنـي أستطيع بسهولة أن أطوقه بيـدي ، وأن أقـول لـه مداعبـة : إنـي هنا. إن ضمه بين ذراعيَّ بـدا لـي لأول وهلـة أنـه حـل مسـالم وسهل ، فلقد كان محيطه إلى حـد مـا محـددا" وإن بـدا مضمونـه يطفح عنـه أو يتقلـص بشـكل متنـاوب ؛ ولكنـي خفـت إذا مـا تمسكت به أن أكتشـف أنـه ليـس هنـا ، وأن أجـد نفسـي أضـم قبضتي في اندفاع نحوه ،لأقع علـى مكثـف متحجـر ممثـل لـه ، مادة أ.د.ن. كشبح ، خرق مفتولـة لامعنـى لـها أسـرع لأضعـها على الرف ، لمسـح الغبـار . رحـت أتسـاءل أي شـيء يشـبه زوجي وهـو عـار . كـانت ملابسـه (قميصـه ، ربطـة عنقـه المفكوكة قليلا" ، بنطاله ، جواربه ، وحذاؤه) تضـع مصفـاة بيـن

مادته وبيني ، فإذا خضعــت الملابـس هــي أيضــا" إلــى صبــاغ جزئي (بهت لون القميص ، وتعــثر لــون ربطــة العنــق ، تمــوج لون البنطال ، وتآكل الحذاء من لــون انعكاســاته) فربمــا قــاومَت الاختفاء بشكل أفضل . ماذا كان قوام جســم زوجــي؟ مــاذا كــانت كثافة جلده الحالي ؟ أية رائحة كانت تنبعث مـــن هــذا الجلــد ؟ وإذا اقتربت منه ، إذا توصلت إلى أن ألتصــق بــه ، فمــاذا سـيكون رد فعل عضوه التناسلي ؟ أما زال لـــه عضـو تناسـلي؟ ألا يكفــي أن أجلس على ركبتيه كما كنت أفعل في المــاضي ، وأن أضمــه بقــوة بين ذراعيَّ وأسحق نــهديَّ علــى صــدره حتــى أشــعر بانتصابــه وامتداده ؟ كان بودي أن أقبّل هذا الجلد ؛ وكنــت أريــد أن أداعــب ما لم تنجح ثيابه في إخفائه . لــم أرغــب فــي زوج لــن أسـتطيع ضمه بين ذراعــيَّ .

نهض يقف ببطء . كانت حركته بطيئة جــدا" حتــى إنــي لــم أرَ إلا وكأن الحيز ينطوي، كما لو كان جسمه وهو يقــف قــد غــير الأبعاد ليجد فيها مكانا" إشكاليا" . بدا الحيز يتجمـــع ثانيــة حولــه ، يرسمه من جديد رسما" تقريبيا" ، يتقبله علـــى الطــول ، والعــرض ، والعمق ؛ إلاَّ أن الجدران بدت تـــتردد بالنسـبة للوضعيــة التــي تتخذها . فما كان باقيــا" ، كــأثر نــيزك ، اسـتمر يعــوم خلفــه ، مشكلا" في الهواء الأثقل منه نوعا" من لمعــان يشــع مــن الحــرارة ، والذي يمكن أن يشبه أجنحة أيضا" ، أو يشـــبه محــرك صــاروخ ، أو مروحة طـــائرة ، أو مظلــة طيــار ، أو أزيــز يعسـوب ، أو محرك مجز للعشب ، أو أي شــيء آخــر قــابل أن يوضــع علــى الظهر ويمكن أن يطير . فحين شعرت بأن زوجـــي يحيطنــي بقــوة

يديه وحدها ، هاتين اليدين غير الماديتين ، وقد أمدني بدوري بهذه الطاقة (بمعنى أدق ، لم يمسني ، وقد جعله الاقتراب غير مرئي تقريبا" ؛ ولكني كنت أشعر به : في داخلي كليا" في آن واحد ، وحيث لا أستطيع الوصول إليه) ، حين ذبت هكذا في ضبابيته ، تحسرت على الوقت الذي كنت أستطيع فيه جعله يلفني بذراعيه دون أن أطرح على نفسي أي سؤال ، ولكني أدركت .أن قوة مائتي طائرة ورقية متلهفة قد شحنتني .

لم أفهم مطلقا" إذا كنا قد اجتزنا النافذة ، أو إذا كان زوجي قد فتحها لنستطيع المرور. ولكن حين وجدت نفسي على سريري ، وحدي ، مرصعة بشيء ما قد حدث فعلا" (أتذكر خاصة ، بنوع من الحرج ، صوتي المتوسل كي يعلمني أن أطير) ، و مشحونة أيضا" بهذه الطاقة التي تكيل لي الضربات بمجرد أن ألمس المفرش (الحائط ، الباب ، الطاولة الصغيرة قرب السرير حيث بقي معطفه موضوعا") ، حين أجد نفسي وحدي في ضوء الفجر المتلعثم ، وأفكر وأنا عاجزة ببساطة عن إعداد قهوتي ، وعن مرافقة أمي حين رحيل مركبها ، وعن العودة إلى المكتب لأكتب هذه القصة ، إني أعرف فقط أني توقفت ، من تلك اللحظة ، عن أن أتساءل إذا كان زوجي (إذا كانت القطط ، والطيور ، والأسماك والذباب ذو العيون المتعددة الألوان) يحس ويرى مع ذلك ما كنت أشعر به وما أراه .



" اختفى زوجي . عاد من عمله ، أسند محفظته على الحائط ، سألني إن كنت قد اشتريت خبزا" . كانت الساعة حوالي السابعة والنصف ."

لن يعود الزوج الذي لا وجه له .

ستنتظر زوجته وهذا الانتظار سيزعزع كل شيء ، فيمتد الاختفاء على الحياة بكاملها وعلى الأشخاص الذين يحيطون الراوية ، كما يمتد على جسمها .

" الكتابة تعني أن يكون الإنسان بين عالمين، حيث ليس من يقين ولكن كل شيء ممكن، حيث تجري الأجسام السائلة كما تسير الأحاسيس والمشاعر" .